قانون البقاء
حياة مدهشة لابن الراوي
عمرو عاشور
رواية
العين

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

قانون البقاء

حياة مدهشة لابن الراوي

قانون البقاء

حياة منحشة لابن الراري

رواية

عمرو عاشور

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ مدبر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عمرو عبد العزيز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٨/٢٠٢٥

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 492 - 9

قانون البقاء

حياة مدهشة لابن الراوي

رواية

عمرو عاشور

دار العين للنشر

إلى الأب في عزلته

"من يحاولون البحث عن دافع في هذه الرواية، سيتم مُقاضاتهم، ومن يحاولون البحث عن درس أخلاقي، سيتم نفيهم؛ ومن يحاولون البحث عن حبكة سوف يُطلق عليهم النار. بأمر من المؤلف"

مارك توين

مدخل: مغامرات هكلبيري فن

(1910 - 1835)

(0)

الأكلان يأكلك، يمتص دمائك في هدوء، لا بأس فأنت غذاء له. ليس لديك وسيلة للدفاع عن نفسك/دمائك غير الاستسلام، الاستسلام والانتظار.

تعتقد أنه انتهى من تناول وجبته، جرعة تترك في فخذك علامة حمراء، بدلًا من هرشها تلتقط الحشرة الصغيرة وتتمعن فيها، تحاول أن تكتشف نوعها. ذكر أم أنثي؟ تدقق فتبهرك الألوان الخلابة وتداخلها العجيب كلوحات الراوي، حتى اسمها عجيب أيضًا "الأكلان"!

لا تعرف لها اسم علمي، ولا تجد ما يصفها بدقة غير هذا الاسم: الأكلان.

في السابق كنتَ حين تعثر على إحداها تدهسها، تفركها بإصبعيك فتفور منها رائحة نفاذة تحبها، ولكن أمك أخبرتك أن رائحتها ستجلب عشيرتها، ثم بصقت في عبها وأضافت:

- بسم الله الحفيظ... دول بييجوا على السيرة.

ويبدو أنك ارتكبت حماقة بقتل الحشرة وجلب سيرتها، فبعد أيام قليلة جاءت العشيرة، واحتلت المفارش، وشقوق الجدران، وحشو المراتب والمخدات وكوّنت مستعمرة لها. ورفعت أمك راية القتال، وراحت تخوض معاركها... في البداية استعانت بالشيخ رضا، وطلبت منه أن يقرأ القرآن لإبعاد الروح الشريرة والعين الوحشة من الشقة، والشيخ رضا أعلن أن الجزء بعشرة جنيهات، وقد شرح لها فضل سورة البقرة وقال أنها تتجاوز الثلاثة أجزاء أي ما يعادل الـ 30 جنيها مصريا، وأمك لم تكن تملك وقتها غير 5 جنيهات فقط لا غير، ألحت على الشيخ أن يتقبلها، فأخذ الـ 5 جنيهات وقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة وحين انتهى من ترتيله قال:

- الشوية دول فيهم الخلاصة بإذن الله.

ولكن خلاصة الشيخ لم تأتِ بأي نتيجة، فاضطرت أمك أن تلجأ إلى المبيدات الحشرية المتعارف عليها، ورشت الشقة وقفلتها ثلاثة أيام قضيتها عند ستك، وحين فتحت الشقة فإذ بالعدد قد تضاعف، وكأن موت القليل من تلك العشيرة قادر على جلب المزيد، وانهارت أمك ورفعت الراية البيضاء، وكادت أن تستسلم لتلك الحشرات كعقاب إلهي على أثم -بالضرورة- قد ارتكبته. وعشتم أيامًا وشهورًا مع تلك العشيرة، أصبحت الشقة مملكتها الخاصة، وأنتم لم تمثلوا لها سوي غذاء تنهل منه عند الحاجة، وكنتَ تسأل أمك: لمَ خلق الله الحشرات؟

وكانت تسكت ولا ترد، تتردد للحظات ثم تهمس: استغفر الله العظيم.

وأخيرًا جاءت فلوس الجمعية التي نضالت أمك من أجلها لشهور طويلة، واستطاعت أن توفر فلوسها من لحم الحي على حد قولها، وتمكنت بعد القبض من أن تداهم المستعمرة بمعركة فاصلة وحاسمة، فطلبت من المنجد أن ينقل المراتب والمخدات للشارع حتى يتمكن من عمله، وتعاقدت مع نقاش ليعيد دهان الحوائط، ولمزيد من الحيطة اشترت من المزارع مبيدات قوية تستخدم في الأراضي الزراعية ورشتها. أما الراوي فقد وجدها فرصة ليمارس هوايته الوحيدة، وانشغل مع النقاش، وانصب همه على الحوائط فراح يزينها باللوحات العجيبة. وفرشت أمك الشقة بعدما تأكدت أن العشيرة قد زالت وأن الاحتلال أُبيد، وحمدتْ الله كثيرًا وبخرت الشقة ومسحتها بالماء والملح، وأيقنت أنها -لابد- قد انتصرت في معركتها مع الطبيعة.

غير أن حشرة جديدة تسقط بين أصابعك الآن، منحتها دمك لتستمر في حياة عبثية بلا شك. تفكر في هذه الحشرة تحديدًا.. كيف كانت حياتها تحت الإبط وبداخل الشقوق؟

الجمع والالتقاط

(1)

أتوسل لأبي:

- هات 50 قرش أجيب أكل.

يرد هو بهدوء:

- مش معايا..

الجوع يمزقني، والفلوس تطل عليّ من جيب جلبابه العلوي. أشير ناحية الفلوس.

- الفلوس في جيبك أهي.

يقبض على فلوسه/ قلبه ويقول بحدة:

- طب معايا ومش هاديك.. انت شريكي؟

اعلم أنه لا شريك له، وأن النقاش لن يجلب عليّ سوي اللعنات والطرد والإهانة، ورغم ذلك يدفعني الجوع للصراخ:

- جعاااان.

يحمر وجهه بغضب فانتظر لطمة على صدغي. بدلًا من ذلك يصرخ هو أيضًا:

- إن شاللـه تموت من الجوع.

تخرج أمي من الحمام، وطرف الجلبية عالق في لبسها، تنزل الجلبية وهي تحاول التهدئة:

- صلوا على النبي كدا واخزو الشيطان..

يهدأ حين يسمع اسم "النبي"، يرتاح وجهه، ويردد بنبرة ولي:

- ألف صلاة عليه... خليه يغور من وشي.

تسـحبني من ذراعي، وتدخل بي الحجـرة الوحيدة، تهمس في أذني:

- غضب الأب من غضب الرب.

- بس أنا جعان.

تطلب مني أن أصبر فبعد الصبر فرج.

- بس أنا شايف الفلوس في جيبه، واللا هو فالح بس يجيب بيها أفيون ويصرفها على كيفه.

تُذعر، تضع كفها على فمي، وتهمس بهلع:

- لو سمعك مش هيحصل طيب، اخرج، روح الجامع وادعي له، يمكن ربنا يسمع منك.

أخرج من الغرفة، فأجد "ناجي" يجلس على الكنبة اليتيمة إلى جوار أبي، بنفس راضية يناوله علبة سجائر سوبر، فيشكره أبي على طريقته.

- روح يا بني ربنا يبعت لك مصيبة تاخدك..

ويبصق على وجهه. يمسح ناجي البصاق.

- ربنا يسامحك يا أبا..

- ربنا يولع فيك بجاز وسخ يا بني..

أمشي في الشارع بمحاذاة ناجي وأنا مستغرب. مستغرب وجائع.

- ليه بتعامله كدا؟

- رضا الأب من رضا الرب.

يقولها بتلقائية ثم يسألني:

- انت جعان؟!

- ميت.

- طب تعالى..

نقف عند منزل الكوبري، أراقبه وهو يتابع حركة السيارات بتركيز شديد. لا أعرف ما الذي ينوي فعله. فجأة يسحبني من كتفي ويهتف:

- ياللا..

يلحق بسيارة نصف نقل مغطاة ومحملة، يتشبث بمؤخرتها، أحاول اللحاق به أنا أيضًا، يمد لي ذراعه فالتقطته، وأقفز على رفرف السيارة. قبل أن أستوعب ما يدور يكون هو استخرج مطواة من جنبه، يفتحها بمهارة ويشق بها الغطاء وهو يقول:

- افتح عبك..

افتح عبي، يُخرج من تحت الغطاء برتقالا، يصبه في عبي، ويمد يديه مرة أخري فيستخرج موزا، أتابعه بفرحة من دخل الجنة بعدما مات جوعًا. تفرمل السيارة، ويخرج منها السائق، يشدني ناجي.

- اجري.

وأجري بكل قوتي، حبات البرتقال تنزلق من عبي، تسقط واحدة وثانية وثالثة، والرجل خلفي بلا شك، كنزي/وقود الحياة يتسرب مني، أحضن ما تبقى. أسمع صوت السائق من بعيد.

- يا حرامية يا ولاد الكلب.

أتجرأ وألتفت فأراه يجمع حبات البرتقال من على الأرض، أحس بأني ابتعدت عن الخطر بقدر كاف، أدخل من الشارع الجانبي الذي دخل منه ناجي.

يلهث، يلهث ويضحك، ألهث بدوري وأقول:

- الله يخرب بيت أمك كنا هنروح في ستين داهية..

يضحك، ثم يسألني:

- اوعى تكون الحاجة وقعت منك؟

أفتح عبي.

- البرتقان بس.

- أحا!

نقعد على الرصيف، نقشر الموز ونأكل.

- بس دا مش أكل حرام؟

أتساءل والموز يذوب في فمي، يبل ريقي، ويسد جوعي، ويمنحني سعادة طارئة.

- حرمت عليك عيشتك.

يضع آخر موزتين في كيس أسود، ويلفهما جيدًا، لا أزال جائعًا، موزة واحدة لا تكفي. أتوسل إليه:

- ما تخليك جدع وتديني واحدة تانية.

- واحدة لأبوك وواحدة لأمك..

ونمضي..

(2)

سيارات النقل التي تأتي من سوق العبور إلى سوق روض الفرج لها مواعيد محددة، أما الجوع فلا وقت له، ينهش كصاحب دَين مزعج، بل هو أشد ضغطًا وإلحاحًا وإزعاجًا، هو ابتلاء كما تقول أمي، أما أنا فقد كان الجوع هو وحشي الأشرس، وكان لا بد لي أن أهزمه، أهزمه كلمة غير دقيقة بالمرة، وليست معبرة أيضًا. أعتقد أن الكلمة الصحيحة هي أروضه، أن أطعمه عند الحاجة، كان لا بد أن أجد وسيلة فعالة لترويضه، وكان عليّ أن أفكر، وفكرت في "البون"؛ وقتها كانت المحلات تتعامل بـ البون، البون دفتر صغير جدًا، هو همزة الوصل بين الكاشير والبائع، الكاشير يكتب على البون ويناوله للزبون، والزبون يناول البون للبائع، والبائع يعطي المشتريات للزبون، وكان البون موجودا بكل المكتبات

والحمد لله، وكان ثمنه لا يتجاوز الـ 20 قرشا ورغم ذلك سرقه ناجي من المكتبة مع تشكلية مختلفة من الأقلام المتداولة، وكنت أنا الكاشير، وناجي الزبون، والبائع على حسب ما نريد.

نقف بالقرب من محل الكشري، أعرف خط الكاشير والقلم الذي يستخدمه، أختار القلم المناسب وأكتب على البون 2×75 واوقع بطريقة الكاشير، وأحيانًا يتدخل ناجي ويطلب إضافة "تقلية زيادة" أو 2 رز بلبن، فأضيف الملاحظة ويمضي، ثم يعود بالطلبات، نجلس على الرصيف ونأكل، وحين ننتهي من الأكل يمسح فمه بطرف الفانلة ويقول:

- اتغدينا... تعالى بأه نحلي.

وندخل السوق، بالقرب من محل الآيس كريم، أكتب في البون: 2×1.5 شيكولاتة ومانجو.

يسحب شخرة معترضة.

- أحا! انت هتأكلني على مزاج ديك أهلك؟ أنا عاوز فراولة وشيكولاتة..

أمزق البون القديم، وأعيد كتابة آخر. يأخذه ويعود إليّ بالآيس كريم. بين يدي البون، بين يدي العالم.

(3)

في مرة كدت أن أموت من الرعب فعلًا، الخوف وحش آخر. يومها أخذني إلى الشارع العمومي، أخبرني أنه يرغب في سرقة تلك المقلة بالذات. لماذا تحديدًا؟

- كلها عيون وطريقها مش سالك.

استغربت.

- مش فاهم؟

- اللعبة الصعبة ممتعة..

وقبل أن أستوعب منطقه، قال.

- استنى هنا.

تركني للحيرة وعبر الشارع، ارتجف قلبي، وتخيلته تحت أقدام العمال، في المقلة خمسة أو ستة عمال، وعلى ناصية الشارع الرئيسي، والحركة بالشارع مزدحمة، ومع ذلك يقرر المغامرة بلا معنى! البون في جيبي، فلماذا يترك العالم الذي يملكه ويأكل من الشجرة المحرمة؟ أرقبه من مكاني هذا، يدخل المقلة، ويخرج، يساعد الزبائن، هو الآن في نظر الزبائن عامل بالمقلة، وفي نظر العمال زبون متعاون جدًا، لدرجة الإجهاد، يخرج من المقلة، ينقل بصره بين المعروضات بالخارج، تسقط عيناه على صناديق كانز بيبسي، يقعد عليها ليرتاح، يقوم ويرحب بزبون ويداعب طفلة مع والدها، يجلس مرة أخرى، يمسح عرقه، يقوم، يلف، ينحني، يشيل صندوقا، يمشي به في هدوء، يزداد التوتر عندي، أجد نفسي أعبر الشارع وألحق به، فجأة يجري ويدخل شارعا جانبيا، تأكلني الحيرة بأنياب الخوف.. لو جريت قد ينكشف أمري، ولو انتظرت لضاع مني. وقلت سأمشي على مهل حتى أدخل الشارع وبعدها طيران، وأنا طائر أسمع من ينادي عليّ.

- عادل.

نداء خاطف أعرفه جيدًا، أتسمر وألتفت فأجد ناجي يقف بين سيارتين تحت الإضاءة المنعدمة، أقترب منه، يمسح عن جبهته عرقا حقيقيا هذه المرة، يلتقط أنفاسه بصعوبة ويبتسم ويتساءل:

- حد خد باله.

- أبدًا.

يضربني على كتفي.

- عشان تعرف إن أخوك برنس.

أنظر إلى الكنز العظيم وأتعجب، أتعجب وأنا سعيد، تلك الزجاجات كانت حلما بعيد المنال، وكنا نراها في إعلانات التليفزيون ونتمني من الله أن يهبنا واحدة، ليس لكونها زجاجة بيبسي، ولكن من أجل "الكانز"... وكان مجرد حصولك على تلك العبوة نقلة اجتماعية يحسدك عليها الأعداء والأحبة. ونحن الآن نملك جبلا من "الكانز"...

- هنعمل به إيه دا؟

تساءلت. يرفع الصندوق، ويثبته على كتفه، ونمشي:

- هما بيعملوا بيه إيه؟ مش بيتمنظروا بيه؟ إحنا كمان نتمنظر بيه.

تروق لي الفكرة فورًا، أجل... لقد تجاوزنا أمر الجوع ودخلنا على المنظرة، ولكن، نتمنظر على مين؟

- على خلق الله... بُص يا أسطي إحنا بكره ناخد أبوك وأمك ونروح جنينة الحيوانات... عشان المنظرة تبقى على الخلق تمّا... بشر وحيوانات...

أمتعض من الفكرة، أبي سيكدر صفو اليوم.

- بس أبوك مش هيرضى يجيي..

- يبقي ياخد حقه ناشف وخليه في البيت... بس أمك لازم تيجيي معانا.. من حقها تتمنظر هي كمان..

ولكن منظرة أمي فاقت التصور في الحقيقة. كنا قد جلسنا في المنطقة الأكثر ازدحامًا، هنا يمكن أن نعمل اللقطة، اخترت أنا فانتا واختار هو البيبسي، وفتحنا الكانز، وكان ناجي قد رج العبوة قبل فتحها كي تشعل الحدث، وبالفعل انتبه الجميع لنا، وعرفت الحيوانات في الأقفاص والطيور التي على الشجر وحراس الحيوانات وعامل النظافة والرواد أننا نشرب كانز، ولم يهتم أحد على الإطلاق، وأُحبطنا. وقلنا نتمشى قليلًا وبين أيدينا صفائح الكانز، كطاووسين نتمخطر، ننظر للناس من حولنا بترفع، ندعي أننا نثرثر، وأن هناك ما يشغلنا عن الناس ويجبرنا على الترفع عمن حولنا، ونحن في الواقع لم ننشغل غير بردّ فعل الناس، والناس منشغلة بأشيائها الخاصة جدًا، يحط علينا الإحباط مرة أخرى، ونقرر أن نعود إلى حيث تجلس أمي، ويعلق ناجي:

- دي عالم بنت قحبة... إحنا نروح نبيع بقية الصندوق لأي كافتيريا هنا ونرتاح من أمه.. ملخ كتفي على الفاضي.

ونســـتمر في المشي فتقابلنا امرأة وطفلتها وبين أياديهما الكانز، بعد خطوة طفل آخر بعبوة كانز، وطفلة، وامرأة، وأسرة كاملة! ما الذي يحدث؟ يضربنا الاســـتغراب، نقترب من مجلس أمي، نجدها افترشت الأرض وراحت توزع على من حولها...

- أحا... إيه دا يا أما؟!

وكان ناجي قد سحب قبلها شخرة غاضبة، تقول أمي:

- خلي الناس تتبسط عشان ربنا يحبك.

(4)

إذا كان أبي قد حرمني من كل شئ فـ ناجي لم يحرمني من أي شئ... مدني بالحياة وحول أصعب أوقاتي إلى مرح وتسلية.

في التاسعة من عمري تقريبًا، ألعب وحيدًا عند قضبان السكك الحديدية، أراقب النمل وهو يمشي في طابور منظم، يعمل بجهد ونشاط من أجل قوت يومه.

أفكر في مساعدته، أتبع الطابور حتى أصل إلى المنبع؛ كيس حلوى ينهلون منه. ألتقط الكيس وأمشي به إلى نفق النمل، بالداخل مستعمرة كاملة يؤدي فيها كل فرد دوره. أترك الكيس أمام النفق، وأفكر أنني بتلك الطريقة قد رفعت عنهم عناء يوم عمل، وربما عدة أيام.

يداهمني ناجي:

- بتعمل إيه؟

- بساعد النمل.

يدهس بقدمه عشرات، وربما المئات من تلك الحشرات. مذبحة بلا شك يروح ضحيتها الكائنات الأصغر.

- ليه كدا؟ حرام عليك!

- ياض انت دماغك مهوية؟

أسكت، وقد ضربني الحزن. يلاحظ ضيقي.

- انت زعلت؟

لا أرد.

- طب قولي نفسك في إيه؟ مش أنا الجن بتاعك؟

أبتسم رغمًا عني.

- نفسي أروح حمام السباحة اللي في نادي الترسانة.

كنتُ قد سمعت به من العيال، كانوا يحكون عن النادي وعن حمام السباحة الكبير. وتمنيت أن أذهب إليه ولو لمرة واحدة فقط.

- انت معاك فلوس؟

سألني.

- منين؟

ارد على سؤاله بسؤال.

- وانت؟

يستخرج من جيبه ورقة مالية فئة الـ 10 قروش..

- معايا بريزة..

أتساءل بيأس:

- يعني مش هنروح؟

يجيب بيقين:

- هنروح، وهنقضي يوم عجب.

يأخذني إلى الشـــارع العمومي، شارع الوحدة، نقف عند محطة الأتوبيـــس، حين يلمح أتوبيس 196 ينطلق نحوه، فأتبعه، نتشـــعبط ونقف على باب الأتوبيس ونرفض الدخول، يأتينا المُحصل ويطلب ثمن التذكرة، فيقول ناجي:

- نازلين المحطة اللي جايه..

تمر المحطة، وتمر الأخرى دون أن ننزل، والمُحصل منشـــغل عنا بالركاب. عند النادي يقفز ناجي من الأتوبيس ويشـــدني معه.

نمر من الشارع الواسع، ونصل إلى بوابة النادي الرئيسية. على البوابة أفراد الأمن متحفزون لأمثالنا، يدققون في بطاقات العضوية التي يبرزها الأعضاء. يقترح ناجي:

- تعال نلف لفة.

نلف حول النادي، نبحث عن ثغرة نعبر منها، النادي كقلعة حصينة، فكيف نقتحمها؟ أنا سريع اليأس أما هو فالأشياء الصعبة تثير حماسته، والمستحيل لعبته المفضلة. أقول:

- مافيش فايدة.

- هندخل يعني هندخل.

يقولها بإصرار. أستسلم لإصراره. البوابة الخلفية للنادي عملاقة ومغلقة، وبين الأرض والبوابة فجوة. ينحني ناجي ويطل من خلال الفجوة، يرمي بالعشر قروش داخل النادي، أستغرب، وأخمن خطته فأعجز. ينبطح أرضًا، يحشر جسده بين البوابة والأرض، يزحف كجنود الصاعقة. يختفي، بلا تردد أفعل مثله، جسدي الضئيل يساعدني، لا أواجه الصعوبة التي واجهها ناجي، أدلف بسهولة، فأجده واقفًا فوق رأسي، أقوم، وأنفض ملابسي، وأجول ببصري في المكان بسعادة، لقد فعلناها! أسأله:

- طب رميت البريزة ليه؟

- عشان لوحد قفشنا أقوله البريزة طارت ودخلت جوه أجيبها.

حجة غير مقنعة ولكنها فعالة، مجرد مبرر أو دافع ليس أكثر. يستوقف شابًا ويسأله:

- فين حمام السباحة؟

يشـــير الشاب المتشـــكك ناحية بناية قريبة ويمضي. عند البناية تواجهنا عقبة أخرى، حمام السباحة بداخل البناية، والبناية محاطة بسور أسمنتي عال جدًا، والعبور من البوابة أصعب مما كنا نتخيل، فالبـــاب ضيق ولا يمر منه غير الأعضاء فحســـب، ورجال الأمن عند البوابة في غاية الدقة والحذر. أقول لنفســـي: سوف يعثر على وسيلة بكل تأكيد.

وبالفعل نجدهـــا؛ هناك باب خلفي ملحـــق بالكافتيريا، من هذا الباب ذي الأســـياخ الحديدية تدخل بضائـــع المطعم عند الحاجة ثم يتـــم إغلاقه فيما عدا ذلك، وقـــد كان مغلقًا بالجنازير. يصعد ناجي درجات الســـلم، يرمي بورقة العشـــرة قروش إلى الداخل، يحشر جسده بين الأسياخ الحديدية ويمر، وأمر أنا أيضًا بنفس الطريقة... المكان كأنه الجنة، النســـاء منتشـــرات حولنا شبه عاريات كحور العين، ونحن كاثنين من الشـــياطين دخلا الجنة خلسة! لا أحد غير النساء والمزيد من النساء والمزيد من النساء...

ندخل غرفة تبديل الملابس المخصصة للرجال فلا نجد بها غير أطفال، ونساء أيضًا يبدلن الملابس لأبنائهن. ويكاد ناجي أن يُجن من الفضول.. يا إخوانا إيه الحكاية؟ ونكتشف أن لحظنا السعيد إن يوم الثلاثاء مخصص للنساء، النساء والأبناء... هل يوجد في العالم من هو أكثر سعادة منا؟ نخلع ملابسنا، ونكومها في كيس بلاستيكي أسود، يركنه ناجي بجوار الحائط، أقلق.

- بس الهدوم كدا ممكن تتسرق؟

يسحب شخرته المحببة ويقول:

- أحا... ساعتها هخلي النسوان دي كلها تروح ملط.

أنا مؤمن تمامًا بأن ناجي قادر على فعل ذلك، أتخيل النساء وهن يخرجن من النادي بملابس الاستحمام، وأنهن يمشين في الشوارع عاريات، وأخمن كم من مواطن سيمتن لناجي ويمتن لفعلته.

نخرج، ونجري نحو حمام السباحة ونقفز، نحن نجيد السباحة، كل العائلة تجيد السباحة، نغطس، ونعوم حتى نصل إلى الماسورة، نقبض عليها ونضحك، نلعب لعبتنا المفضلة، نغطس في نفس الوقت، ونراهن أن من سيخرج أولًا سيكون الخاسر، أكتم نفسي، وأشتت تفكيري بالعد العكسي، أحس بأن ناجي يخدعني، وهو دائمًا ما يخدع الجميع. الهواء ينفد من صدري، أحاول أن أتحمل المزيد،

لا أستطيع، تشق رأســـي المياه، ألهث، ناجي لا يزال تحت المياه، أرفع رأسي لأعلى وإذ بفتاة جميلة وبيضاء وممتلئة تقف عند حافة الحوض، فوق رأسي بالتمام، تستعد للقفز. يخرج ناجي، أغمز له، ينظر إليها ويعض على شفته الســفلية بهياج. الفتاة ترتدي مايوها مــن قطعتين، أري من موقعي هذا شـــعر عانتهـــا. ترفع ذراعيها نحو الســماء وتقفز. تغطينا المياه فتزيد من شهوتنا، تعوم، وتقبض بدورها على الماســورة. على الفور يترك ناجي الماسورة ويدعي الغرق، أعرف أنها حيلة، ناجي يجيد اختيار الأهداف، ولا يرضى ســوي بالأفضل دائمًا، وأنا مجرد تابع، مشـــاهد من بعيد، مشاهد ومســتفيد، أشارك بسلبيتي وأرضى بنصيبي أيًا كان. الفتاة بتلقائية تســاعده، تحضنته وتحاول أن تجعله يمسك بالماسورة، يحتضنها هو أيضًا. كثيــرًا ما كنتُ أتمنى أن أكون في مكانه، ولكن في تلك اللحظة تحديدًا تمنيت أن أكون هو، أن أدفن رأسي بين نهديها مثلما يفعل الآن، وأن ألتف حولها، أن أكون بداخلها.

أســمع صوت صفير، أنظر إلى مصدر الصوت، أنثى، مُدربة، مســئولة من النادي، تشــير لناجي أن يخرج، فيخرج وهو يلهث ويستعبط، تسأله:

- هنا مكان الكبار.. فين مامتك؟

هو فــي نظرها مجرد طفل، يتقمــص دور الطفل فورًا، يقول ببراءة.

- ماما تحت..

- وإيه اللي طلعك انت فوق؟ انزل لمامتك، وإلعب تحت مع الأطفال اللي في سنك.

- حاضر.

يقولها كطفل حقيقي، يمشـــي، وينزل إلى الدور السفلي. أخرج من الحوض، وأمشي أنا أيضًا، بالأسفل اشعر وكأني آدم حين طُرد من جنته، آدم لم يكن يملك من النســـاء غير حواء، وقد اصطحبها معه. أما أنا فقد كان تحت نظري العشـــرات من النساء، باختلاف أحجامهن. وتحت لا يوجد غير حوضين للســـباحة، واحد للأطفال أقل من خمس سنوات، والثاني مناسب لمن هم في عمرنا... طفولة برينة وساذجة وهي صفات أبعد ما تكون عنا! يحط علينا الإحباط أقول لناجي:

- كان لازم تحكها بروح أمك.. اتفضل بقى أدينا هنقضي اليوم مع العيال السيس دي.

غير أن ناجي يجد لنا تسلية عجيبة، يغطس، ويبعبص العيال، والعيال تصرخ، ويصرخ هو أيضًا ويقول لهم:

- أوعى الكابوريا.

ويغطس مجـــددًا، ويقرص البنات مـــن مؤخراتهن وأفخاذهن،

والبنات يصرخن، وأنا أضحك ولا أفعل مثله. نستمتع تمامًا ونضحك من قلوبنا بينما يتضايق الجميع ويفرون ضجرًا من حولنا.

وقت الراحة نوشك أن نموت من الجوع، أجلس على طاولة وأرتجف من البرد، يغيب ناجي ويعود بسندويتشات شاورمة وبطاطس وبورجر، لا أسأله من أين أتى بها، فالإجابة دائمًا معروفة.

نعود إلى البيت بعد يوم ممتع وطويل، لا نزال نحتفظ بالعشرة قروش، وبقايا الطعام والشهوة.

(5)

رمضان مزعج نهارًا مبهج ليلًا... في هذا الشهر يتوقف ناجي عن رذيلته، يتذكر فقط أن السرقة حرام في شهر رمضان، هو شهر الخير والبركات وربنا سوف يرزقنا بلا شك، وكان يأتي الرزق من مائدة الرحمن المنصوبة بالشارع العمومي. تذهب أمي بعد صلاة العصر وسط حشد من المتسولين وتنتظر دورها، وتعود مع الغروب، وقت الأذان، الناس تصلي المغرب وهي تدخل بالمعلبات، طبيخ ولحوم، وتنادي على أبي. يكون هو أكثرنا تأهبًا، يحمل عنها الصينية ويضعها على الأرض، ويلحق ناجي بهما. وأنا في مكاني، على الكنبة أتفرج على بوجي وطمطم، وأتابع حياتهما الجميلة الخالية من الأب والأم، وأفكر في الراوي، في سلطته وجبروته، وقداسته التي وهبتها له الطبيعة. الطبيعة أم القدر؟

يتناثر الطعام من فم أمي وهي تقول:

- برضه مش هتنزل تفطر... أوعى تكون قرفان؟ دول جايبين طباخين إيه يا واد يا عادل..

وتغمز للراوي:

- ما تقول له يا راوي..

يمضغ، ويبصق كلمته المعتادة.

- حطي في بوء أمك خرا.

وتحـــط في فمها لقمة وتمضغ المـــرارة والإهانة، وأفكر أنا: لمَ أتعفـــف عن طعام المائـــدة؟ هل أنا قرفان فعـــلًا؟ ليس هناك أقذر مـــن أمي، ومع ذلك أحب طعامها وأشـــتهيه؛ أظافرها دائمًا طويلة ومتسخة، والبربور لا يجف من أنفها أبدًا، وعندها لزمة في الكلام فغالبًا ما تنهيـــه بزرطة معتبرة ثم تضحك. وها هي تضحك الآن، ويضحك أبي، ويضحك ناجـــي... ويقرصني الجوع. أقوم، وأفتح برطمـــان الليمون، وأمـــلأ الطبق وآكل. وتمصمص أمي شـــفيتها وتتحسر.

- بذمتك أنت مش واد خايب..

ويهز الراوي رأسه وهو يفترس قطعة اللحم.

- اللي ياكل على ضرسه ينفع نفسه..

لماذا لم آكل معهم؟ حتى الآن يصعب عليَّ الإجابة.

***

بالليل نشترك في الدورة الرمضانية... وهي التي يشرف عليها الـ "نُص"، نصف إنسان يعشق كرة القدم. يكبرنا بأعوام ولكن ضآلة حجمه جعلت منه مزحة، يعجبني فيه إخلاصه للا شئ، مخلص لكرة القدم وخلاص، مخلص بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. ولكن بلا هدف، جسده يعوقه على اللعب بمهارة، لم يكن يجيد اللعب من الأساس. وكان من عادته في كل رمضان أن ينظم دورة الشوارع، يتكفل هو بثمن الكأس والميداليات في سبيل أن يكون حكمًا للمباريات، وكان حكمًا لا يفوته شئ، صارما، ومحافظا على قوانين اللعبة لأقصي مدى، ومتسلطا، ومتعصبا للا شئ! وكان لا بد لنا أن نكوّن فريقًا، وسمى عمرو ودنه نفسه عمرو الشبح وقرر أن يكون حارس مرمى، وأطلق ناجي على نفسه البرنس، مع العلم أنني حذرته وأخبرته أن هذا اللقب ليس له علاقة بالرياضة ولا بكرة القدم. غير أنه أصر. وبولة وبلص ودءمة احتفظوا بأسمائهم بينما نور ابن الصعايدة اختار لنفسه الشعاع.

واشتركنا في أول مباراة، وأظهرت الكتيبة أداء مشرفا وخرجنا من الشوط الأول خاسرين 4 - 3.

نفكر أننا في الشوط الثاني سوف نقهرهم، خصوصًا وأن الشبح ودنه سابقًا- قد أظهر مهارة فعلية في حراسة المرمى، والإخوة

مهرة في الكرة من الأساس، والبرنس مارس اللعبة بعنطزة، فتسبب في خسارتنا، وعليه أن يعود إلى لقبه القديم "فوريرة" فإحنا في أمس الحاجة لصاحب هذا اللقب، يبدو أن ما أقوله قد نال من حماستهم بالفعل، فقد استعادوا روح الكتيبة، وانطلقوا إلى مواقعهم مستعدين للتحدي. غير أن ظهور فلكس أفسد كل شئ، كأننا كنا نواجه كابتن ماجد شخصيًا، أنا عن نفسي أدخل بي ثلاثة خرومات، وتسبب في سحلي، وكاد أن ينقصم ظهري. تقريبًا مرمطنا، مرمطنا ترقيص وانتصر علينا بأربعة أهداف أخرى.

لا بد أن نرحل من هنا حالًا. تنهال علينا التعليقات الساخرة، نبدو كفرقة مهرجين فشلت في عرضها بعدما انكشفت كل حيلها.

نقعد على طريق السكك الحديدية، في هذا الملعب كانت التدريبات والعزيمة والحلم، واليوم خيبة أمل تفرش الدنيا، يسحب ناجي شخرته البائسة.

- أحا البرنس يلبس خمسة كباري وبعبوص..

رغمًا عني أنفجر في الضحك.

- انت بتضحك على إيه؟

أهز رأسي وأضحك، نحن في الأصل نلعب، صحيح إحنا اتعمل معانا الجلاشة غير أنها في النهاية مجرد لعبة.

- وأنا بقى مش بحب الخسارة، وهاخد الكاس.

فأكتم الضحكة هذه المرة، يتدخل بلص.

- لسه فيه ماتش تاني...

يهدأ ويستكين. يتساءل باهتمام مدير فني.

- مع مين؟

يرسم بلص على الأرض الرملية.

- هما تلات مجموعات، كل مجموعة فيها تلات فرق..

- أخلص يعني مع مين؟

يقولها ناجي بنفاد صبر.

- مع حسين الأعرج.

ينتفض ناجي من السعادة والتفاؤل.

- أهو دا فريق كحيان. والكابتن بتاعهم أعرج.

يتدخل عمرو الشبح.

- يا ابن العبيطة ما احنا هنرجع نلاعب العيال دي، وهيعملوا معانا نفس النمرة.

- على الطلاق أغز الواد فلكس دا واللا أخطفه.

يقولها ناجي بيقين: أهتف.

- بيبو.

بيبو زميلي في المدرسة، وشريكي في الدكة، وأحرف لاعب صادفته في حياتي، رغم سنه الصغيرة إلا أنه يشارك الكبار في لعبهم، والمدرسون وقت المباريات المهمة بينهم يتنازعون عليه، فهو ضمان أكيد للفوز بأي مباراة. وذهبنا جميعًا نرجوه أن ينضم لفريقنا. ورفض. فنحن في نظره مجرد صبية لا نجيد اللعب باحترافية مثله. تغطينا سحابة من الخيبة. غير أنه يقترح.

- ممكن ألعب معاكم بس هجيب قردون يلعب معايا هجوم.

قردون صديق بيبو الأنتيم، معًا يشكلان هجوما قويا لا يقدر أحد على صده، يلعبان بشكل متناغم وفي غاية التفاهم، نفوز بالمبارايات الواحدة تلو الأخرى، ويتكفل الشبح بحراسة المرمى، بينما نبقى نحن في الدفاع، في الحقيقة دورنا غير فعال، وقليل ما تصل إلينا الكرة فنمررها لـ قردون أو بيبو ونتنظر هدفا بديعا.

في المباراة النهائية، ليلة الوقفة، اللقاء المرتقب بين فريقنا وفريق فلكس.. قبل المباراة بساعات لا نجد لـ بيبو أثر، نسأل عنه في البيت، وفي الملعب الكبير، وعند بتوع المراجيح دون فائدة. نسأل والدته فتقول إنه سافر إلى المنصورة مع أبيه، وأنه لن يعود

إلا بعد قضاء إجازة العيد. نسـقط في ورطة... هل علينا مواجهة التحدى من جديد؟ مواجهة المأساة؟

نبذل كل ما نستطيع. توشك المباراة على الانتهاء والنتيجة 5 - 1 للفريق المنافس، والجون اليتيم لم يكن سوى خدعة من ناجي، وباقي القليل وتنتهي الدورة ويحصل فريق فلكس على الكأس والميداليات، ويطلب ناجي أن يتم استبداله لأنه مُتعب ومُصاب بشد عضل، ونستبدله، ونواصل اللعب المهين حتى تعلن صفارة الـ "نص" انتهاء المباراة والدورة بأكملها، وتنزل الجماهير وتحتفل بالنصر، يلتفون حول فلكس ويحملونه ويحدفون به إلى أعلى، وفلكس طائر من السعادة، ونحن ننسحب كأي خاسر منهزم. ويصرخ الـ "نص"..

- فين الكاس والميداليات؟

وينتبـه الجميع له وقد غطتهم دهشـة عامـرة، وكان قد وضع ترابيـزة ورص عليها الكأس والميداليات كما يجري في الدوريات المهمة والحقيقية، وكان يسـتعد لتتويج الفائزين غير أن الأشـياء اختفت، تبخرت.

عند السـكك الحديدية، أنحني كما انحني بلـص وبولة ودمة والشبح، أمام ناجي، يضع في رقبتي الميدالية كأنها عقد من الزهور. ثم يرفع الكأس بسعادة المنتصر. أجل لقد انتصرنا.

السيرة الذاتية للسيد "ز"

(1)

تقول أمي:

- هنروح المولد.

أفرح ويفرح ناجي أيضًا، لم نزر المولد من قبل غير أننا أحببناه من أوبريت الليلة الكبيرة... هناك السيرك والمراجيح وباعة الحلوى، ونحن نحب السيرك والمراجيح والحلويات. تصر أمي على أن نرتدي الجلاليب البيضاء دون ملابس تحتية رغم برودة الشتاء. نركب أتوبيس السيدة عائشة، تماطل أمي مع الكمسري في ثمن التذكرة، تقول:

- دول لسه صغيرين... مش هادفع غير تذكرة واحدة.

والكمسري يمل من عناد أمي وزنّها.

- هاتي اللي تجيبيه يا ست وخلينا نخلص.

تدس يدها في صدرها، تفتح صرة الفلوس، وتنتقي منها ورقة فئة العشرة قروش، وتمدها له، يتناولها ويقلب فيها بتأفف. الورقة مهترئة، ومغسولة من قبل، ومقطوعة من عند الطرف.

- شوفلنا واحدة تانية بدل اللي دايس عليها القطر دي.

تزعق.

- مافيش غيرها.

يمضي متضايقًا ليستأنف عمله. تجلس هي ونتكوم نحن على حجرها. تيار بارد يتسرب إلى مؤخرتي ويلسعها، لا أبالي.

ندخل المولد المزدحم بخلق الله، أتأمل ما حولي بدهشة تليق بطفل. يشير ناجي نحو بائع العرق سوس، ويطلب كوبًا، تخبطه أمي على كتفه.

- مش هنجيب حاجة.

يتساءل بحيرة وغضب.

- أومال إحنا جايين ليه؟

لا ترد. تسحبنا وتقف بنا في طابور طويل من العيال وأوليائهم، الطابور ينتهي بخيمة، يدخلها الطفل بتوجس ويخرج منها شبه ميت،

ويستقبل بزفة من الزغايد والتهاني. ولكن صوت الصراخ القادم من الخيمة يعلو على أي بهجة. أحس بالخوف يحتويني، يحتضنني كأنه يتشبث بي، كأنه خائف هو أيضًا. أتطلع إلى أمي فيواجهني وجهها الجامد، الحاد، المحايد. أنقل بصري إلى ناجي، أجده حائرًا ومخضوضًا ومترقبًا. في لحظة أفكر في الهرب، في أن أفلت يدها القابضة على معصمي بقوة وأجري، أتخيلني قد هربت بالفعل، وأنني وسط الزحام تائه. نتقدم خطوة أخيرة، نقف عند باب الخيمة مباشرة، يسألها الرجل الواقف عند ستارة الخيمة:

- الاتنين؟

ترد.

- آه..

يفتح كفه أمامها.

- عشرين جنيها..

تنصعق، تضرب على صدرها وتشهق:

- ليه؟

يلح الرجل:

- التسعيرة كدا.

تفرد ورقة بعشرة جنيهات وتلوح بها. يقول بإصرار.

- ماينفعش..

تضيف ورقة بخمسة جنيهات.

- طب خد.. وما تفتحش بوءك بكلمة زيادة..

دون كلمة زائدة يزيح الستار ويسمح لنا بالدخول.

بالداخل ينتظرنا الحلاق في بالطو أبيض وطويل، أمامه العدة، وحوله المساعدون، ثلاثة رجال أشداء كأنهم زبانية جهنم، ترمي أمي بالسلام وتقول:

- عاوزه أطاهر العيال دول..

يشير الحلاق نحو ناجي ويطلب منه أن يقترب. يتشبث ناجي بطرف جلباب أمي ويرفض، ينقض عليه الزبانية، يحملونه ويقدمونه للحلاق كأضحية. يرفس ناجي ويصرخ بلا جدوى. يطلب منهم الحلاق أن يرفعوا جلبابه، يمسك الرجل ببتاع ناجي. أموت أنا في جلدي، إنني مشتت بين الفضول لمراقبة ما سيحدث وبين الخوف، أفتح عينا وأغلق أخرى. يرفع الحلاق شفرته وينزل بها على عضو ناجي. صرخة ناجي تقتحمني وتهزني، أصرخ بلا صوت وأندم لأنني لم أهرب في اللحظة المناسبة. يرمي الحلاق بقطعة اللحم الزائدة، ويلف العضو بشاش أبيض. يأتي دوري، يزداد الندم: لمَ لم أهرب؟ أتوسل لأمي باكيًا.

- انا عاوز أروح البيت..

تملس على شعري.

- دا عشان تبقى راجل.

أفاوضها بصوت ينتحب.

- مش عاوز أبقى راجل.. أنا كدا كويس.

ينقض عليّ الزبانية، أنا أضعف وأصغر حجمًا من ناجي، يحملونني بقسوة، ارفس، أحاول أن اعض ذراع أحدهم. غير أنهم أقوياء وبلا قلب. أستنجد بناجي فأجده مهزومًا يئن من الوجع.. أسأله بصوت متلهف.

- بتوجع؟

يرد بصوت مذبوح:

- موت..

أفضل الموت عن الألم، أفضله وأتمناه. تلمع الشفرة الحادة بين أصابع الحلاق، تسيل منها الدماء وتقطر. إنهم يذبحون الأعضاء! يمسك بتاعي، يقشعر جسدي وينتفض، أترقب اللحظة المميتة، أغمض عينيّ بكل قوتي، يفعلها هو في ثانية، شكة موجعة ونارا مشتعلة، أصرخ كما لم أصرخ من قبل. يعلق الحلاق ببرود، وهو محتفظ بابتسامته العجيبة.

- حسيت بحاجة؟

وارد في سري: يلعن ديك أمك.

نعود إلى البيت بجروح دامية وجلاليب ملطخة بالدم. نباعد ما بين ساقينا ونمشي كالبطاريق.

يستقبلنا أبي، دون أن يرفع عينيه عن لوحته المنشغل بها، يقول بتهكم.

- بقيتوا رجالة يا ولاد الكلب.

ليلًا يزداد الوجع، أحس بأن السخونة تحرق بدني، أرفع الجلباب وأتأمل الجريح. أسأل ناجي:

- بتاعك لسه واجعك؟

يجيب:

- مش أوي.

- إشمعنا أنا.

أرفع الغطاء وأزيحه جانبًا وأقوم، أهز أمي النائمة.

- أنا محسور.. عاوز أطرطر.

تتكلم وعيناها مغلقتان.

- امسك نفسك لغاية الصبح.

في الصباح، أقف في منتصف الحمام وأفك الشاش بالراحة، أجز على أسناني، عضوي منتفخ ولونه أزرق، تنز منه سوائل بيضاء وخضراء. أحاول أن أتبول، يخرج البول كخط نار فأصرخ، ولا أتمالك نفسي فأبكي، أخرج من الحمام، أبي لا يزال عاكفًا على لوحته. يسألني:

- مالك؟

أجيب وأنا أمسح دموعي:

- مافيش..

أبحث عن أمي فلا أجدها، أعود وأساله:

- هي فين أمي؟

- بتجيب طفح.

أدخل الغرفة، وأتكوم تحت البطانية. لا يزال الحرقان مستمرا. بعد دقائق، تدخل أمي وتهزني.

- قوم إفطر.

- مش عاوز..

تستغرب.

- مالك؟

- بتاعي واجعني أوي.

تهتف مخضوضة:

- وريني كدا..

أتركها تفتش فيه.. الجرح تقيح بالفعل. يبدو عليها القلق.

- طب قوم إلبس هدوم الخروج..

وتخرج. ألبس الفانلة. غير أنني لا أقدر على لبس البنطلون، مجرد احتكاك القماش به يقتلني.

يأتيني صوتهما من الخارج، أسمع أمي وهي تقول للراوي.

- عادل لازم يروح للدكتور.

وأسمعه يرد:

- مافيش فلوس.

أخرج دون أن ألبس البنطلون، أراه مستغرقًا في تأمل لوحته.

- الواد هيضيع مننا يا راوي.

- في ستين داهية..

تنفعل.

- هما مش ولادك..

يهز منكبه باستهانة.

- أنا إيش عرفني؟

تكتم غيظها فالجدال معه لا يجوز، هو يكره من يعارضه ويبطش به بلا رحمة.

- أنا هتصرف.

تقولها وتلتفت فتنتبه لوجودي، تسألني لمَ لم ألبس هدومي؟ أرفع البنطلون لأعلى.

- مش عارف ألبسه، بيوجعني.

- طب إدخل إلبس الجلابية...

وأنا داخل أسمعها ترجوه.

- ما تزعلش مني يا راوي... بس الضنا غالي..

في الصيدلية أرفع طرف الجلباب. يتفحص الصيدلي عضوي، يهز رأسه متضايقًا.

- دا لازم يروح للدكتور.. ومش أي دكتور كمان.. دا لازم جراح.. الجرح بالطريقة دي هيعمل صديد.

تبكي.

- مالك يا ست؟

تقول:

- مافيش..

يتعجب.

- ما تخافيش.. خديها على الدكتور يحيى اللي فى شارع الوحدة.. دا شاطر وسعره حنين.

تجهش بالبكاء.

- في إيه بس؟

لا مفر.

- مش معايا ولا نكلة.

يتساءل:

- وفين أبوه، ميت؟

- تقدر تعتبره كدا... عايش زي الميت... موجود ومش موجود..

يتأثر الصيدلي، يطلب منها أن تنتظر، يفتح درج المكتب ويلتقط 20 جنيهًا، يمدها لأمي، فتخطفها غير مصدقة..

- خديهم واطلعي بيه على الدكتور قبل ما يحصل مضاعفات.

تأخذها وتطلع بي على المستشـــفى المركزي الحكومي، تقطع تذكـــرة بجنيه، وتدخل بي على الدكتور الشـــاب. تحكي له الحكاية فيطلب مني أن أتمدد على الشيزلونج فأفعل، يسألني:

- تاخد بنج والا هتستحمل؟

لا أعرف ما هو البنج، فأقرر بأنني سوف أتحمل.

ينظـــف الجرح بقطنة مبللة، تشـــتعل فيّ النيـــران. يعلق على ما يراه.

- منه للـه.. دا شوهه خالص.

- يعني إيه يا دكتور؟

يطمئنها.

- ما تخافيش..

ثم يبتسم لي.

- لازم بنج يا بطل..

تدخل طبيبة جميلة. تتساءل:

- فيه إيه يا دكتور؟

يدعوها قائلًا:

- بصي كدا يا دكتورة..

تتامله.. اخجل منها، تحركه بأصابعها الرقيقة. تقول:

- مين الحمار اللي عمل كدا؟

تسكت أمي. يقول الدكتور.

- انا هديله بنج كلي وأحاول أعالج الجرح.

تعترض.

- وليه كلي؟ سيبه أنا هتصرف معاه.

يتركه لها ويذهب. تبخ عليه سائلا فأشعر بالتنيمل يسري فيه، ثم أفقده، أفقد إحساسي به، كأنه لا يخصني، كأنه أصبح منفصلًا عني تمامًا. تتعامل معه بمهارة، وتربطه بالشاش، ثم تكتب قائمة طويلة بالأدوية وتقدمها لأمي. تُحبط أمي.

- أجيب منين كل دا؟

تأخذ منها الروشتة، تضيف عدة كلمات ثم توقع باسمها وتعيدها لأمي.

- انزلي العيادة وقوليلهم الدكتورة ملاك هي اللي بعتاني.

كان لا بد أن أخمن أنها "ملاك"، هكذا تكون الملائكة بلا شك.

في طريق العودة تمر أمي على بائع الفراخ، وتشتري منه أرجل

الفراخ، ثم تجلب البصل والطماطم والعيش، وتطبخ لنا الأكلة التي ننتظرها كل حين ومين.

تقول للراوي.

- ياللا الغدا...

يعاين اللوحة التي استغرقت منه أسبوعين متواصلين برضا.

- إيه رأيك؟

تمسكها هي وتقلب فيها، تقول.

- حلوة.. ممكن نستنفع بيها..

وتستخدمها بديلًا للطبلية، تفرش عليها أوراق الجرائد، وترص فوقهـا الطعام، ونلتف حولها جميعًا ونـأكل. وتبدأ الحياة تدب في السيد "ز".

(2)

هـــي واحدة من آل البيت وإن كانت لا تنتســـب لأحد من أهله، في عمر خالتي تقريبًا -وخالتي تكبرني بتســـعة أعوام- يتيمة الأم، وكانـــت أمها صديقة ســـتي، هي تعيش مع أبيهـــا الهرم في عزلة مهلكة... تقول دائمًا لجدتي:

- ربنا عوضنا بيكم.. إنتي أمي وسهام أختي..

وبالطبع أنا في منزلة ابن أختها الكبرى، وابن أختها في حاجة لمن يرعاه، من يهتم بشئونه وتربيته ونظافته أيضًا... تنادي عليها جدتي:

- بتعملي إيه عندك؟

تلبي النداء وهي تنشف يدها المبتلة.

- باغسل المواعين..

تطلب منها أن تترك ما بيديها وتأخذني كي أستحم.

أعرف اللعبة وأتلذذ بها. تدعك جسدي بيدها الناعمة، وتعتني ببتاعي على نحو خاص، تلاعبه وتلاطفه وتمصه. يعرف السيد "ز" المص لأول مرة في عامه السادس. يتفاعل معها وينتصب، تخلع ملابسها.

- أنا هستحمى معاك.

أقارن بين جسدها وجسدي، أنا أملس كصحراء يقف في نهايتها فرد وحيد، صغير وحائر وأملس هو الآخر، وهي كأرض بكر يعلوها جبلان، أنظر إلى ما بين فخذيها وأدقق. أتساءل: أين بتاعها؟ وأخمن أنه مختبأ بين الأحراش.

- انت تحميني زي ما انا بحميك..

تقترح. تروق لي الفكرة... أضع يدي على الجبلين وأقبض، أحس بها تتلوى، تقول.

- عاوز ترضع؟

لا أرد، أرضع على الفور، ألقم الحلمة وألعقها، وألحسها. تتأوه، أحس بأنني أوجعها، فأتوقف، تئن وترجوني أن أستمر فأستمر، تعض على شفتيها. تعلن أنها ليست قادرة، تمسك السيد "ز" وتحكه

بين فخذيها. تستمتع باللعبة واستمتع أنا أيضًا. تهدأ وتقبل السيد "ز" قبلة أتمناها لي.

(3)

تزق أمي باب الشقة وتدخل وهي تقول مرحبة:

- تعالي.. خُشي يا حبيبتي..

يتعلق نظري على الباب في انتظار القادم... طفلة تصغرني بعدة أعوام، صغيرة وبانسة وجميلة.

توضح أمي:

- كانت واقفة عند الطعمجي وجعانة.. قلت تفطر معانا.

وقت الفطار الاحظ أنها هادئة وجائعة فعلًا. تأكل بنهم وأمي تغالي في ضيافتها.

تسألها:

- إنتي ساكنة فين يا حبيبتي؟

- في الشارع.

في صوتها بحة محببة. يبان التأثر على وجه أمي، تفكر، تقترح:

- إيه رأيك تعيشي معانا؟ أنا ربنا أداني ولدين وكان نفسي في بت بس ما حصلش نصيب.. إنتي هتبقي بتي.

لا أجد ردّ فعل على وجهها، فقط تهز رأسها وتستمر في مضغ الطعام. تسألها أمي:

- اسمك إيه؟

- عزة..

- حلو.. عزة.. عزة.

وتستشير الراوي:

- إيه رأيك؟

الراوي لا يتدخل فيما يدور أبدًا... لذا كنت أطلق عليه الشجرة. أما أمي فقد كانت تصفه دائمًا بـ"خيال المآتة"، وجوده وسطنا مجرد رمز ليس أكثر.

ننتهي من الطعام فتقوم أمي وتحمل الأطباق. البنت خجولة ومرتابة، تحاول أن تساعدها، تحمل طبق، وتسأل أمي:

- فين المطبخ؟

تفتح أمي باب الشقة وتجيب..

- في الحوش.

لم يكن في شـــقتنا مطبخ، وأمي فكرت ودبرت واســـتغلت بير الســـلم، وبير الســـلم كان وطنًا لمخلوقات عجيبة، شعبه من العفن والديدان والفئران والحشـــرات. ولكنها استطاعت في حملة تنظيف شرسة إبادة الشـــعب المسكين. واشترت "بوتاجاز" بأقساط - مات صاحبها من العِلة - وجعلت منه مطبخًا. أما الشـــقة فهي في الدور الأرضي من بيت جدتي، أوضة وصالة وحمام بلدي لا يتســـع غير لقاعدة صغيرة وطشت مياه وحنفية منخفضة. تلك الشقة هي الحلم الوحيد الذي حققته أمي.

في الصالة تقول لها أمي:

- انتي لازم تستحمي.

وكان لعزة رائحة كريهة فعلًا. تتساءل.

- بس أنا ماعنديش غيار ليكي؟

ثم تفكر.

- أنا هتصرف.

وتتصرف أمي، تجلب لها كام غيار من أبلة عفت، بناتها في مثل عمر عزة تقريبًا.

تستحم عزة وتلبس ملابسًا نظيفة، تغرق أمي شعرها في الجاز وتمشطه، تنقي منه القمل وتنقعه في طبق مياه فيغرق.

أراقبهما وأنا أدعي القراءة، أدعي أنني مشغول عنهما وأنا في الحقيقة لا انشغل بغيرهما، أمي وأختي المستعارة، وأفكر: من أين أتت؟ وماذا واجهت في حياتها السابقة؟

بالليل، ينام أبي على الكنبة، وتنام هي وأمي على السرير الوحيد، بينما نتشارك أنا وناجي الفرشة. بعد منتصف الليل يوقظني العطش، أشرب وأعود. أمي تشخر، والبنت قد أزاحت الغطاء من عليها، أحدق في فخذيها فينشف ريقي وأقترب، أجلس على حافة السرير وأتلصص، بوضوح يظهر لي لباسها ذو الأزهار الصغيرة، أتمنى للسيد "ز" أن يلهو قليلا في حديقتها، تتحرك، أنتفض، وأنسحب وأندس تحت الغطاء، أتقلب طوال الليل بين الرغبة والإثارة، المقاومة والانهيار.

مع مرور الوقت تأخذ البنت راحتها، تلبس شورت ناجي، وفانلتي الحمالات، تساعد أمي في شغل البيت كأي ابنة بارة. وألبد لها أنا، لا أخرج مع ناجي.. أنخرط في قراءة وهمية، عين على السطور وأخرى على جسدها. هي على الأرض تنقي الأرز إلى جوار أمي. وأمي تسألها:

- وفين أهلك يا عزة؟

يحمر وجهها ولا ترد.

- إحنا أهلك.

لا ترفع عينيها عن طبق الأرز.

- انتي بتعرفي تقري وتكتبي؟

تسألها أمي. تجيب هي بفخر.

- بعرف أكتب اسمي.

تفرح أمي بها.

- شاطرة.. أنا برضه بعرف أكتب اسمي وأقراه كمان.

البنت تنظر لي من تحت لتحت. تلتقط عيني العالقة فتبتسم.

- كان نفسي أعرف أقرا زيه..

هي تقصدني بالتأكيد.

- عادل دا أشطر عيالي.

تشيد بي. تضيف.

- وانتي بقيتي أخته.

ثم تنادي عليّ:

- يا عادل.

أغلق الكتاب، وألبي النداء.

- أيوه يا ماما.

أتصنع الأدب. تقترح.

- إيه رأيك تعلم عزة القراية؟

يرتجف قلبي/زبي... ما أكبر الشبه بينهما؟

- ماشي.

تتكلم إلى عزة.

- خلاص... هو هيعلمك كل حاجة.

أعد الأدوات وأرصها على الترابيزة: القلم الرصاص، القلم الجاف الأحمر، كراسة، وكتيب لتعليم مبادئ القراءة.

تدخل وتتقدم على اســتحياء. أدعوها للجلوس فتجلس. أقدم لها القلم الرصاص وأفتح لها الكراسة، وأسألها:

- تعرفي أ - ب؟

تفكر، ألاحظ أنها أجمل مما اعتقدت بكثير... شفتاها كحبة فراولة مقسومة، حمراوتان وشهيتان وناضجتان، وأنا مُهيأ تمامًا لتذوقهما.

- نص نص..

أطلب منها أن تكتب ما تحفظه فقط. تكتب بخط سيئ عدة حروف وتنسى التنقيط. أمسك بالقلم الأحمر وأضع النقاط على الحروف. تسألني:

- أنا شاطرة؟

- لاه..

تحبطها الإجابة والنبرة. أضيف بنبرة محفزة.

- بس لو سمعتي كلامي هتكوني شاطرة.

تبتسم. ابتسامتها دعوة مفتوحة للتقبيل.

- انت الأستاذ بتاعي وأنا هاسمع كل كلامك.

دعوة أخرى أتقبلها بسرور.

- الغلطة بعقاب.. والصح بمكافأة.

تتساءل بفزع:

- هتضربني؟

أنتهز الفرصة.

- لازم... عشان تتعلمي.

تتغير ملامحها، ويعتريها الحزن.

- مالك؟

- مافيش.

أُغلق الكتاب وألح في سؤالي، فتجيبُ.

- أنا هربت من أبويا عشان كان بيضربني ويحرقني.

تمد ذراعيها فأرى آثارا لحروق قديمة. أشفق عليها. بلا مقدمات تقوم وتستدير، تسحب الشورت إلى أسفل. غير مصدق لما أراه... المؤخرة عارية، مدهشة مؤخرتها.

- وكان بيحرقني هنا.

أدقق، تبدو الحروق صغيرة جدًا. أخمن أنها بفعل السجائر. أتأكد من تخميني حين تصارحني.

- كان بيطفي فيا السجاير.

ترفع الشورت قبل أن ألمس موضع الحروق وتعود لمكانها الأول، أمامي. ألهث، وقد انتصب السيد "ز" بعنف وراح يلح على الخروج والمشاركة كطفل مزعج. تنتبه لي.

- مالك؟

أسكت.

- وشك أحمر أوي.

أتهرب منها.

- مش هنبدأ الدرس؟

تشترط.

- بس من غير ضرب.

أوافق. أبدأ الدرس دون تركيز يُذكر؛ النار بداخلي متأججة ولا وسيلة لإخمادها. الجنس وحش آخر فكيف أواجهه؟ أتساءل: كم من وحش بداخلي عليَّ مقاومته؟

أكتب لها الحروف بخط كبير وواضح وأطلب منها أن تعيد كتابتها. أخرج. الراوي في الصالة يستعد للوحة جديدة. أدخل الحمام، وأحل أسر السيد "ز"، يبدو كوحش صغير، هائج، وغضب، أصب عليه الماء البارد عله يهدأ ويستكين.

في الصالة تواجهني أمي بجلابية الخروج، تقول:

- أنا رايحة لستك ومش هغيب.

تخـــرج، وأدخل أنا الغرفة، أغلق البـــاب بإحكام وأمضي نحو ثمرتي المحرمة.. تطالعني الثمرة مبتسمة ومتأهبة، ترفع الكراسة وتقول:

- أنا خلصت.. فين المكافأة؟

مرة أخرى تنسى التنقيط، وتعكس الحروف، تقريبًا ولا حرف واحد كتبته بشكل صحيح، ومع ذلك أهتف..

- برافو عليكي... انتي لازم تاخدي مكافأة فعلًا.

تستبشر خيرًا، أهمس.

- أنا عاوز أقول لك على سر.

يتملكها الفضول.

- سر إيه؟

- لازم توعديني الأول إن ماحدش يعرف أبدًا..

يسحقها الفضول.

- أوعدك.

- أنا عالم.... عالم وساحر..

تستغرب.

- إزاي يعني؟ بتطلع أرنب من البرنيطة؟

أكتم ضحكة في طريقها للفرار. أتقمص الدور.

- لا أنا ساحر حقيقي.. وممكن أعالج الحروق اللي عندك دي واخليها تختفي خالص...

تستعجب.

- بجد! إزاي؟

- بعصايتي السحرية..

تحتار.

- وهي فين دي؟

أفتح سوستة البنطلون وأستخرج السيد "ز".. يطل عليها بسعادة. تهز رأسها وهي تبتسم بخبث.

- انت كمان بتحب قلة الأدب؟

يشلني السؤال. انت كمان: تعني أن هناك من سبقني! لا أعرف بماذا أجيب. تجيب هي عني.

- أنا كمان بحب كدا.

ينفجر قلبي من المفاجأة. أتاهب للحظة قد تكون الأمتع في حياتي. غير أن دقة على الباب تفسد كل شئ، إنه الراوي.. أدخل السيد "ز" إلى بيته، وأفتح الباب وأنا مرتبك.. يطل علينا بنظرة مرتابة ثم يسألني..

- قافلين باب الأوضة ليه؟

أشير ناحية الكتاب والكراسة.

- بعلمها القراية والكتابة.

يهز راسه ويخرج، أتنهد بارتياح. أعود لفتاتي فتبتسم. اقترب منها فتقتحم أمي الغرفة، تفتح شنطة بلاستيكية وتقول لعزة..

- شوفي حماتي بعتت لك إيه؟

تخرج من الشـــنطة تشكيلة من الفساتين الجميلة، تحتضنها عزة وتفرح بها، تطير من السعادة.. تقول أمي..

- أنا حكيت لها عنك، وهي عاوزاكي عندها، تساعديها وتخدميها وهي هتجيب لك كل اللي نفسك فيه.. حاكم حماتي دي طيبة.. هتعيشي معاها أجمل أيام عمرك..

وتعيش معها عزة أسوأ أيام حياتها. تحرقها جدتي لأتفه الأسباب، وتحلق لها شعرها الجميل، تعذبها وتحبسها لعدة أيام في البلكونة، في عز برد يناير، تربط عزة الملاءات بسور البلكونة، وتنزل، تقفز وتهرب، وتختفي إلى الأبد. وأغرق أنا في التساؤلات: أين ذهبت، وماذا ستواجه في حياتها القادمة؟

(4)

أيام الإجازة نحمل التليفزيون الصغير ونصعد به إلى فيلا عثمانة... الفيلا في الأصل حجرة واحدة، تقع في الدور الثاني بين شقتين، شقة إصلاح وشقة عمرو الشبح. كنّا في عهدنا الأول نسكن بتلك الغرفة، أنا وناجي والراوي وأمي، أمي شافت فيها الويل. وكانت الحجرة بلا حمام فنضطر إلى التبول والتبرز على خط السكك الحديدية، وكانت أمي تحممنا في الطشت، وتحمله فوق رأسها لتدلقه على السكة وهي ترفع رأسها لأعلي وتدعو: "شقتي عندك يا رب".

وكدنـــا أن نتعفن بتلك الحجرة لولا أنها دبرت قرشـــين واقنعت جدتي أن تترك لنا شـــقة الدور الأرضي، فوافقت بعد توسل مهين. واتخذ عثمانة من تلك الحجـــرة مكانًا لتحقيق أحلامه العجيبة، هو في الأصل طالب جامعي بكلية فنون جميلة غير أن طموحه تجاوز

الفن. وقد حول الحجرة إلـــى متحف حقيقي، علق لوحه على بابها "فيلا محمود عثمانـــة" وبالداخل فرش فيلته المزعومة بالموكيت، ورصع الحوائط بأسلحة بيضاء وأخرى مزيفة كان قد اشتراها من ســـوق الجمعة، ولم ينسَ أن يثبت ذئبا محنطا على الباب، وصقرا عند النافذة الصغيرة. وكان شديد الاهتمام بالفيلا، بأناقتها ونظافتها، وكان يجبرنا على خلع الأحذية، وغســـل القدمين قبل أن يسمح لنا بالدخول، أما الجلوس على السرير الوحيد فهو أمر ممنوع قطعيًا... في الحقيقة كانت هناك قائمة طويلة من الممنوعات والمحظورات كأي متحـــف محترم: ممنـــوع اللمس، ممنوع الجلـــوس إلا على الأرض، ممنوع الأكل، ممنوع الكلام بصوت عالٍ.

كنّا ننفذ تعليماته حرفيًا في مقابل أن يتيح لنا أن نأتي بالتليفزيون ويأتي الشبح بالفيديو ونتشارك في تأجير شرائط الفيديو. وكانت الأفلام في معظمها أفلام رعب كما يحب الراوي ويهوى، وأكشن كما يفضل عثمانة، وكوميدية كما أرغب أنا وناجي.

°

يضع ناجي التليفزيون على الترابيزة بحرص، يوصل الأسلاك ويتأكد من كل وصلة... ويبدأ العرض، نتكوم جميعًا أمام الشاشة الصغيرة، في حين ينفرد الراوي بالسرير رغم أنف عثمانة، ونتابع ما يدور بسعادة وشغف.

يدق الباب، يفتح عثمانة، يظهر عبده ابن عمتي، يخلع حذاءه

ويدخل. نفسح له مكانًا، فيجلس ويشاهد بفتور، بعد دقائق يقوم، ويقول:

- انا هنزل أجيب لكم حاجة أحسن من كدا.

ويخرج... نستكمل نحن الفيلم، يتلذذ الراوي برؤية الموتى الأحياء وهم يتحلقون حول فتاة، ينهشون في لحمها، الفتاة تصرخ وتستغيث، والراوي يضحك، كأنه يشاهد فيلمًا كوميديًا، المشاهد الدموية تسعده وتريح أعصابه وتفتح شهيته للحياة! مرة أخرى يدق الباب ويدخل عبده من جديد، يرفع طرف الفانلة فنلمح الشريط الأحمر محشورا بين البطن والحزام، ينتشله ويقول:

- فيلم سكس.

لم يكن أحد منا قد شاهد فيلم بورنو من قبل. حتى الراوي نفسه. كنّا نعتبر أفلام نادية الجندي وشمس البارودي أفلامًا إباحية، وكان فيلم "المغتصبـــون" لـ ليلى علوي هو أكثر الأفلام إثارة بالنســبة لنا. على الفور نســتبدل الشريط، لم يعترض أحد، حتى الراوي لم يمانع، نرجع لجلســتنا القديمة وننتظر العرض: تنزل التترات على حديقة فيلا، فيلا حقيقية هذه المرة، الوقت ليلا، يتحرك شــبح بين الأشجار، يتسلق شجرة، يقفز من عليها بمهارة ويقبض على سور البلكونة، يقف، رجل في بدلة أشبه ببدلة الغطس، طبقة رقيقة سوداء تغطي جسده كله، ووجهه أيضًا، يكسر زجاج البلكونة ويدخل، في

حجرة النوم تتقلب امرأة تجـاوزت الثلاثين في قميص نوم قصير "بيبي دول".. اللص أمام خزينة يحاول فتحها، جرس إنذار يضرب في غرفة المرأة، تنتبه من نومها، تفتح الدرج، تلتقط مسدسا ضخما، وتخـرج. اللص لا يزال يحاول ويبدو أنه يواجه أمرا معقدا، تنغزه بفوهة المسدس في ظهره، يرفع ذراعيه، تطلب منه أن يستدير، يلف ببطء وحذر، تتكلم معه -الفيلم غير مترجم- قبل أن نخمن المحادثة تكون هي قد مررت فوهة المسـدس على صدره ثم نزلت بها على بطنه ثم وصلت لبتاعه! وبتاعـه بدا منتفخًا وبارزًا تحت الملابس الغريبـة. تنحبس الأنفاس، وتكاد أعيننـا تنخلع من فرط التحديق. تسـقط على ركبتيها، تطلع بتاعه! هنا لم نتمالك أنفسنا من الدهشة والسعادة، صيحة جماعية تخرج منا، وشغف لرؤية المزيد. بحركة واحـدة تنزع عنها قميص النوم فتصبح عارية تمامًا، يفور الدم في أدمغتنا، ويقوم ناجي ويقترب من الشاشة حتى يكاد أن يلتصق بها، ويمد أصابعه في محاولة يائسـة للمس النهد النافر غير أن شخطة من الراوي.

- اقعد يا ابن القحبة مش عارفين نشوف.

يعود إلى مكانه. ونشوف الفيلم في طقس عائلي لمرة وثانية وثالثة. ويغط الراوي في نوم عميق. ويصنع كل واحد منا قرطاسًا ويعصر بتاعه، أوجه السيد "ز" ناحية الدعك، وأقول له: شوف يا أعور واتعلم.

كنّا قد بلغنا الحلم من عدة أعوام، وقد احترفنا جميعًا ضرب العشاري حتى أدمنّاها وتفننا فيها، أما عبده فقد كان أصغرنا، طفلًا لا يزال أو هذا هو المفترض. ينتفض عبده مرة واحدة ويصيح:

- هاتولي قرطاس.. أنا حاسس إني هبلغ دلوقتي حالًا.

نضحك على عضوه الصغير، بتاعه في حجم عقلة الإصبع أو أصغر قليلًا. يشرع في دعكه ويرتعش.

- مش قادر.. مش قادر.. حاسس إني هجيبهم.

نترقب جمعيًا الحدث إلا عثمانة، بسرعة البرق يصنع له قرطاسًا ويمده نحو عقلة الإصبع.

- نشن هنا.

وعبده يصرخ ولا يتوقف عن الدعك.

- مش قادر.. مش قادر..

وينشن على القرطاس فيخرج خطا طويلا من البول يغرق عثمانة والموكيت ويطرطش علينا. نغرق في ضحك جماعي، ويستشيط عثمانة غضبًا ويثور.

- يا ابن ديك الكلب.. ينعل ميتين أبوك.

وينتبه الراوي من غفلته مذعورًا..

- فيه إيه؟

نسكت، ونكتم الضحكات. يلقي نظرة على الفيلم الدائر.

- اطفوا القرف دا بقي وناموا..

ونغلق الأجهزة، وندعي النوم، وكُل واحد مشغول ببتاعه.

(5)

لم أكن أعرف وقتها أن الأحلام تتحقق أحيانًا!

أبحث عن بنطلوني في كل مكان، أفتش في الدولاب وبين هدوم ناجي وتحت السرير والكنبة ولا أجد له أثرا، أسأل عنه أمي فتجيب:

- عند فرح، اطلع هاته وهات بقيت الغسيل.

كانت أمي تنشر الغسيل في الحوش، وكان سكان البيت يتضايقون من غسيلنا المنشور، ومن المياه التي تغرق عند المدخل وتلبخ الدنيا، وكانوا يكتمون شكواهم خوفًا من بطش جدتي وعمتي. أما أمي فالغسيل هوايتها المفضلة... تصحي من النجمة، وتلم هدوم البيت كله، وتولع البابور، وتشغل الغسالة المزعجة، وتظل طوال اليوم ما بين دعك ونقع وعصر ثم تنشره في مدخل البيت. غير أن لصا بائسا ذات مرة قطع الحبال وسرق الهدوم. يومها بكت

أمي وناحت، وأظهر سـكان البيت تعاطفا ظاهريا وشماتة باطنية، وعرضت عليها فرح:

- إبقي إطلعي أنشري عندي يا أم عادل..

وأم عادل انتهزت الفرصة ووافقت على الفور.

فرح جارة جديدة، جاءت من الصعيد مع زوجها الشاب، ودخلت في شقة الدور العلوي. في الليل كان يصلني أصواتهما: ضحكات، لعب، دبيب أقدام تركض، ثم آهات وعبارات غزل صعيدية. وكنت أتخيل ما يحدث بالأعلى، وأتمنى لو كنت مكان زوجها، وأستخرج السيد "ز" وأشاركه الحدث، أنهار على وقع الآهات والتأوهات حتى أقذف غير أنني لا أرتاح. وحين أراها مصادفة في الصباح أجدها محتشمة وجادة ومحترمة كما تصفها أمي. ولكن العريس الشاب سافر إلى ليبيا بحثًا عن لقمة العيش، وترك عروسه وحدها.

أقف لمام شقتها وأدق على الباب، لا رد! أفكر أنه لا أحد بالداخل وقبل أن أهمّ بالنزول يستوقفني صوتها..

- مين؟

- أنا عادل يا طنط..

تفتح البـاب، تواريه وتطل من خلفه، شـعرها مبتل، وعيناها مدهشتان.

- عاوز إيه؟

- أمي بعتاني آخذ الغسيل..

تفتح الباب أكثر، وتفسح لي مجالًا للعبور.

- ادخل..

فأدخل دون تردد. أشوفها بجلابية البيت الخفيفة فأخمن أنها كانت تستحم منذ دقائق ولم تتمكن من ارتداء ملابس داخلية. يبدو جسدها مكشوفًا ومكتملًا وناضجًا وشهيًا. ينشف ريقي ويتحرك السيد "ز". تقول:

- اِقعد هنا عقبال ما ألم الغسيل؟

تلف رأسها بطرحة وتتجه إلى البلكونة، أتأمل المؤخرة الطرية ترتج فيدق قلبي بعنف. تغيب وتعود بالهدوم، أقوم وأفرد ذراعيّ.

- عنك.

وأتعمد أن ألمس نهديها وأنا أحتضن الملابس. تنتفض، وتزغر لي بعينيها. أحس أنني أوقعت نفسي في مأزق. تهدأ، تسألني:

- انت بتعرف تكتب يا عادل؟

بسرعة أرد.

- طبعًا!

- طب ممكن أطلب منك خدمة؟

- طبعًا.

تأخذ مني الهـدوم وترمي بها على الكنبـة، تدخل غرفة النوم وتخرج بقلم وكراسة، تقول:

- أنا عاوزه أكتب جواب لـ "طه".

أتناول منها القلم والكراسـة، أعود إلـى مكاني. تنزع الحجاب وتجلس إلى جواري، تقول.

- اكتب..

أفتح الكراسة وأتهيأ للقادم.

- حبيبي طه، تحية طيبة وبعد... مش عارفة أقول لك إيه؟

يختلـط عليّ الأمـر... لا أعرف إذا كانت تسـألني أم أن هذا ما تريد كتابته. تلاحظ.

- مالك وقفت ليه؟

أتلخبط. تستكمل:

- وحشني يا طه.. كل حتة فيك وحشتني، هدومك مش هاين عليا أغسلها، ريحتك مونساني، بس الريحة طارت..

وتسكت، تسرح بخيالها، ألمح دمعة تحاول الفرار من عينها اليسرى. أسألها:

- مالك؟

أشعر بالغصة في حلقها. ترد بصوت متهدج:

- مش عاوزه أوجعه في الغربة.

تسيل الدموع. بلا وعي مني أجد نفسي أمسح دموعها. تنهار فجأة في البكاء، أحتضنها وأطبطب عليها، يفوح من رأسها رائحة الليمون، الليمون والياسمين، أستنشقها، تتخللني، وتسري بداخلي. السيد "ز" يعافر بداخل بنطلوني، يحاول جاهدًا أن يخرج، وأن يشارك. أرفع رأسها نحوي وأتأمل الوجه الجميل، الجميل والحزين، أدقق في شفتيها، نار تحرق بدني وتدفعني للمزيد، وتبدو لي المخاطر جميعها هينة، هينة وبسيطة، هينة وبسيطة وتافهة. أقرب فمي من فمها، وأقول:

- ما تزعليش بكره يرجع.

. تطبق على شفتيّ، تلتهمهما، وتدخل لسانها في فمي. يكاد أن ينفجر قلبي، يدي اليمني تقبض على صدرها واليسرى تبحث عن غايتها/غايتي/غايته. هي أيضًا تقع بين نارين، جزء منها يحاول التملص وآخر يدفعها إلى الاستسلام. تنهج.

- انت هتعمل إيه؟ مش هينفع.

ارفع جلبابها فأتأكد من تخمينـــي، ليس هناك ملابس تحتية، لا يوجد موانع أو عقبات، تلتف الســـاق بالساق، أزيحها وأصل إليه، أفركه بأصابعي. تتلوى هي وتئن وتعض شفتيها.

- مش قادرة.. مش قادرة.. خلاص..

تدفعني عنها وتقوم، مضطربة بلا شـــك، هائجة بالطبع، تنفخ، خيط من اللهب يخرج من جســـدها المشتعل. أفتح السوستة وأحل أسر السيد "ز".. تهتف وهي تتأمله.

- اللـه يخرب بيتك... انت عاوز مني إيه؟

لا أرد فقـــط ألوح لها ببتاعي، تخلع جلبابها. يكتمل جمال المرأة ويتوهج حين تكون عارية، عارية وشـــبقة ومحرومة. تنزل على ركبتيها وتمسك بالسيد "ز"، تقبله.

- دا أطول منك!

لا أعـــرف إذا كان تعليقها مدحا أم ذما! لســـتُ مهتمًا، أترك لها السيد "ز" تلعقه، وتمضه، تتعامل معه برغبة محمومة فيقطر سائله في فمها. قبل أن أعتذر لها عن وقاحة السيد "ز" تكون هي قد لعقت منيه بحب وشوق، أندهش. تتساءل:

- انت نمت مع واحدة قبل كدا؟

فلا أقول لها إنني نمت مع كل نساء الأرض، ولكن في خيالي. اكتفي بالصمت. تفهم.

- طب قوم شطفه وتعالى.

أقوم وأشطفه وأعود فلا أجدها،أجول ببصري باحثًا عنها فيأتيني صوتها من غرفة النوم.

- انت فين؟ تعالى.

في الغرفة أراها ممددة وعارية، تفسح لي مكانًا إلى جوارها.

- اِقلع هدومك وتعالى نام جنبي.

في لمح البصر أخلع كامل ملابسي وأندس جنبها. تبوس عنقي وصدري وبطني، تشم رائحة عانتي، وتداعب السيد "ز" بلسانها ثم تهمس له.

- أنا عاوزاك تقطعني.

السيد "ز" ينتصب بعنف كجندي متأهب للمعركة. تعتليني، تقبض عليه بأناملها وتدخله فيها. السيد "ز" في موطنه الأصلي وهو في السادسة عشر لا يزال. تنزل عليه بالراحة، تتأوه.

- آهي.. اهي.. دا كبير أوي!

تنزل وتطلع وأنا تحتها، أصابعي تداعب حلمتيها، وحلمتاها

تشبهان حبة التوت، أما نهداها فهما كالشمام الإسمعلاوي. تميل بجسدها نحوى، تهمس.

- اوي يا طه، أوي.

طه! طه.. ليس لديّ مانع في أن أكون "جن أزرق" من أجل التجربة، التجربة والمتعة المدهشة.

- جامد يا طه... جامد.

أحرك جذعي تحتها، أدخله كله دفعة واحدة، فتشهق وكأن روحها قد انسحبت منها، أتحرك بسرعة أكبر وعنف، تصرخ، وتصفع وجهها، تخدش صدري. تبلغ الشهوة ذروتها، أقوم وألقي بها من عليّ، تفتح رجليها على آخرهما. أبصق في كف يدي، وأفرك السيد "ز". تقول بلهفة..

- أنا غرقانة.. دخله بقى.

أطعنها به، وأحلق، وتحلق معي، وأتيقن أن الأحلام قد تتحقق أحيانًا.

أمير ولي أتباعي

(1)

تمسح أمي على شعري.

- انت شكلك محسود يا واد.

يصدح صوت الأذان... تضيف:

- قوم صلي.. صلي في الجامع.

رواد الجامع هم أنفسهم رواد مقهى نعناعة... البعض يركع، والبعض يسجد، والبعض يقرأ القرآن، والبعض الآخر يذكر الله. وأنا أصلي ركعتين، وأطيل السجود فأتلقى جرعة إيمانية تتدفق في جسدي، وأشعر بأنني أسمو على كل شئ، وأن السماء أقرب لي من الأرض.

أنتهي من صلاتي وأقوم، أقف أمام المكتبة والتقط مُصحفًا كبيرًا،

ألتفت فيداهمني الشـــيخ رضا، عملاق يحجـــب عني رؤية العالم. يزغر لي.

- حط المُصحف مكانه..

- بس انا عاوز أقرا.

أقولها بصوت متهدج، متهدج وخائف. يتجهم.

- دا مش للعيال.

أتـــرك المُصحف وأنزوي في ركن بعيـــد، وحين يؤذن للإقامة أغادر مسجد الشيخ رضا.

أدخل المسجد الصغير القابع بالشارع الخلفي، أجدهم في الركعة الثانيـــة فألحق بهم، أصلي باطمئنـــان، ينتهون هم من صلاتهم ولا أنتهي، أعوض مـــا فاتني وأبقى في مكاني. من حولي تعم الحركة كما تفوح الرائحة. التســـبيح على أصابع يدي بينما بصري يستطلع ما يدور، أنظر إلى الصواني المغطاة والتي تفترش الأرض وأخمن مـــا فيها، تصلني رائحة المرق واللحـــم والصلصة فتداعب معدتي ويسيل لعابي. يصيح رجل:

- ياللا يا إخوانا... عقيقة أخوكم أمير ربنا رزقه بولد.

الرائحة تتخللني ومع ذلك أتصنع التجاهل وعدم الجوع. يقول الكهل الجالس على يميني.

- خد بإيدي يا بني.

أقوم، وأمد له ذراعي فيقبض على كفي ويتحامل حتى النهوض، يسند على كتفي ويمشي ببطء. كل مجموعة كونت حلقة تتوسطها صينية، يقول الكهل للحلقة الأقرب:

- إفسحوا يا إخوانا..

يزحزحون مؤاخرتهم ويفسحون لنا مكانًا، ويدعوه أحدهم.

- اتفضل يا راجل يا بركة.

ويقعـد، وأقعد أيضًا. أكوام من اللحم أمامـي، أمد يدي والتقط قطعة، ينبهني الكهل:

- دي سمينة.. خد دي..

ويدس في فمي قطعة حمراء، تذوب في جوفي. أحاول أن أفكر في آخر مرة تناولت فيها اللحم فأعجز. ربما تكون هذه المرة هي الأولى!

يقول لي الكهل:

- كُل.

ويقول لي الشيخ:

- كُل.

وأنا آكل وآكل وآكل حتى أظن أنني لن أجوع أبدًا. وأعود إلى البيت فتستقبلني أمي مستبشرة.

- وشك نوّر.. تعالي اتغدى.

- أنا كلت.

- كلت فين؟! دا أنا عامله فول نابت يستاهل بوءك.

أجلس علـــى الكنبة وأراقبهم وهم ينهالـــون على أطباق الفول. يسألني ناجي:

- وكلت إيه في الجامع؟

بأظفاري أستخرج نسلة لحم محشورة بين الضرس والناب.

- لحمة.

يهتف.

- يا ابن المحظوظة!

ويكتم شخرة تحاول الفرار. تزغر له أمي.

- شوفت يا خايب، مش كنت روحت معاه؟! أهو ربنا رضاه.. ما حدش يقصد بيت ربنا غير لما يرضيه.

وقت المغرب يذهب ناجي معـــي، يتوضأ بلا عناية، ولا يكف عن سؤالي.

- فين الأكل يا عم؟!

وأنا لا أرد بغير كلمة واحدة، ثابتة ولا تتغير.

- اصبر.

ويصبر، ونصلي المغرب ولا نبرح مكاننا. يصعد الخطيب على المنبر، ويلقي بالسلام، ثم يقول:

- درس اليوم عن الأنبياء..

ويحكي عن ابتلاءات عظيمة، وحكايات عجيبة في زمان بعيد، أبطالها من الجن والملائكة والشياطين، ونحن لا نفكر غير في الأكل والواقع وما سيكون.

(2)

أداوم على الصلاة في أوقاتها دون جدوى.

عند باب المسجد أبحث عن الشبشب فلا أجده، أفتش في كل مكان، وأخجل أن أسأل أحدا عنه... الشبشب قديم ومهترئ ولا يساوي جنيهًا. غير أنه كل ما أملك! أبكي فيسألني شاب ملتحٍ:

- مالك؟

- الشبشب ضاع مني.

ويبحث معي ويسأل بلا نتيجة فيحضر قبقابا من الميضة ويقول لي:

- روح بيه.

أمشي بالقبقاب الثقيل، نعله الخشبي يدق على الأرض فيصدر صوتًا يلفت الأنظار، وحزامه القماش يمزق قدميَّ.

تقول امي مُحبطة:

- يا وكستك... ضيعت الشبشب؟

ويعلق الراوي.

- خلّيه يمشي حافي عشان يعرف قيمة الحاجة.

واتحبس في الشقة لعدة أيام حتى اكاد أن أموت من الزهق. انتهز ان ناجي نائم فأختلس شبشبه وأخرج. أذهب إلى المسجد وفي نيتي أن أحافظ على الشبشب كعيني بالتمام. حين أدخل المسجد يقابلني الشاب الملتحي ويسألني عن سبب انقطاعي عن الصلاة. فأصارحه بالحقيقة، وأحكي له الحكاية كاملة. يتأثر. وبعد الصلاة يأخذني إلى محل باتا، يترك لي حرية اختيار شبشب جديد، وكوتشي أيضًا. تعجز اللغة عن وصف فرحتي. عند الكاشير يحاسب هو في حين أقف أنا عند البائع وأتابعه وهو يضع المشتريات في كيس كبير، يسألني: انت أخو خالد؟

لم أكن أعرف أن الشاب الملتحى اسمه "خالد". أقول له:

- لأه.

وأسمعه وهو يهمس لزميله:

- سبحان مقلب القلوب، أهو خالد دا كان بلطجي ومدمن مخدرات بس ربك لما يريد بقى!

أندهش: هل هذا الورع التقي كان من الأشقياء يومًا؟

في طريق العودة يشير ناحية مسجد صغير ويقول:

- ابقى تعالى صلي هنا بعد كدا.

أمنحه ابتسامة عريضة.

في البيت، تمسك أمي الشبشب بيد وباليد الأخرى الكوتشي وترقص وتهلل:

- دا كرم ربنا.

يغتاظ ناجي:

- من هنا ورايح رجلي على رجْلك.

ويتدخل الراوي:

- كفاية الشبشب.. روحي رجعي الجزمة إحنا أولى بتمنها.

وتستغرب هي:

- دا رزق من عند ربنا.. حد يقول لربنا لأه؟

بالليل أحتضن الكوتشي الجديد وأفكر فيما جنيته حتى الآن... طعاما وكساء، وماذا بعد؟

(3)

هذه ليلة اســتثنائية بلا ريب... ساعة المسجد تدق العاشرة ليلًا، والمكان لا يزال يكتظ بالإخوة، أعرف القليل منهم، وباب المســجد مُغلق علينا من الداخل. وأنصرف عن الجميع منشغلًا بالشيخ الأكبر، وأتمنى أن أراه بوضوح غير أن العتمة التي تحيطه تحجب رؤيته، والاقتــراب محــرم علينا، لا أحد يتعامل معه غيــر الأمير جابر، والأمير جابر هو أمير الجماعة الإســلامية بإمبابة كلها، مشــهور بقوته وشجاعته وشموخه غير أنه ينحني أمام الشيخ الأكبر بإجلال ويهمس، والشيخ الأكبر يهز رأسه بإنصات ثم يشير بإصبعه. ينسحب الشــيخ جابر مع إشارة الشيخ الأكبر وهو لا يزال منحنيًا. يأمروننا أن نجلس جميعًا على الأرض فنفعل، عيوننا معلقة على المنبر نتابع أحد الإخوة وهو يحمل جهاز التليفزيون ويثبته في المكان المخصص

للخطيب ثم يتناول جهاز الفيديو من أخ آخر. أجدني شغوفًا ومتلهفًا لما سيحدث. هل سيعرضون فيلمًا لـ جاكي شان؟ أطرد الأمنية من رأسي وأجدها مستحيلة بالطبع. ينزل الأخ من على المنبر، ويبدأ التشغيل: في الشاشة مجموعة من المجاهدين في صحراء مجهولة، يزحفون على بطونهم، ويتقافزون من فوق النيران. يطل علينا شيخ بلحية بيضاء، يعرف نفسه باسم أيمن الظواهري، وأنه من مصر، وأنه سافر إلى أفغانستان ليلتحق بالإخوة هناك، ويدعو جميع الإخوة بكل أنحاء العالم أن يثبتوا فالنصر لنا. لقطة أخرى تذهب بنا لـ بورما، جبال من الجثث المتفحمة يحط عليها أسراب الذباب، أسمع أصوات الذباب تطن في أذنيّ، وتجتاحني رغبة قوية في التقيؤ، ويقول المعلق إنها جثث للمسلمين، وإن معظم هذه الجثث من النساء والأطفال، وأن المسلمين في بورما يتم إبادتهم. يضربني خوف وإحساس بقهر. يتبدل المشهد فإذ هي فلسطين، أطفال في مثل عمري تقريبًا وربما أكبر بقليل يواجهون جيش المحتل بالحجارة، أحدهم يقذف بحجر على دبابة وهو يهتف: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(*). حين يصطدم الحجر الصغير بالدبابة تنفجر! تنفجر وتتحول إلى أشلاء وحطام. ترجني اللقطة، ويلتصق المشهد بمخيلتي فلا يفلتني. يتأثر الأخ الجالس إلى جواري، تنزل منه دمعة وأخرى، يردد بصوت مخنوق: يا الله... إما النصر أو الشهادة.

(*) سورة الأنفال، الآية: 17.

أسترجع الرؤيا القديمة، وأتساءل: هل الليلة ستتحقق؟

ويحمل الشـــيخ جابر إجابة لسؤالي، ينادي عليّ، ثم يفتح شنطة سوداء ويخرج منها مصحفًا وخنجرًا وشالًا منقوشًا عليه علم فلسطين يضعه على كتفي، ويحملني ويمشي بي حتى المنبر، يضعني فوق المنبر. تهتز الجدران من أثر صوتهم القوي، القوي والحازم..

- أطفال خلف الحدود..

وحجارتهم كالرعود..

مفعم بالحدث، تغمرني الحماسة فأثبت كما يليق برمز.

- الانتفاضة مستمرة..

حتى تعود الأرض حرة..

الخنجر ثقيل والمُصحف أثقـــل. تدق الثانية بعد منتصف الليل. يحضنني الأمير جابر ويمشي بي ناحية الشيخ الأكبر.. يوصيني.

- ما تردش غير بكلمة واحدة وإياك إنك تسأل.

أشير برأسي بما يعني حاضر. أقف بين يد الشيخ الأكبر. أعيش الرؤيا بواقعها العجيب، يقول لي:

- اقترب.

أتقدم خطوة.

- اسمك إيه؟

- عادل الراوي.

- عندك كام سنة؟

- عشرة.

- عندك إخوات؟

- آه.. ناجي أخويا التوأم..

- عظيم جدًا.... تحب تكون مُجاهد يا عادل؟

يخبطني العرض والسـؤال. أتأمل وجهه، ألاحظ البياض الذي يكسو عينيه... إنه أعمى.. تربكني الملاحظة.

- آه.

- قرب.

أقترب خطوة أخرى. يمسح بكفه على وجهي.

- أنت أبوك شغال إيه؟

- مش بيشتغل.. بيرسم.

يشمئز كأن حشرة سقطت في فمه. أنتظر المزيد ولكنه يشير لي أن أنصرف. أود أن أسـأله: وماذا عن الجهاد؟ غير أنني لا أفعل، فقط أنصرف وأنا عازم على تحقيق ما أريد.

(4)

أنا اليوم أمير ولي أتباعي.

أقول لهم:

- الجهاد، لا ســـبيل للتخلص من الشر المتمثل في الآخر سوى بالجهاد.

وأقول أيضًا:

- نحن منتصرون في كل الأحوال فإذا متنا دخلنا الجنة، وإذا انتصرنا فسوف ننعم بالدنيا أيضًا.

لا أحد يفهم ما أقوله... بلص، بولة، والشبح. يتدخل ناجي:

- يبقى نبدأ بالجهاد.

يقترح ناجي اقتراحا مدهشا، يثير حماسنا فنخطط لأول عملية في سبيل اللـه... في الشارع العمومي سوبر ماركت لرجل مسيحي، قصير وأبيض وبعيون ملونة ويشبه الفرنجة فهو واحد منهم بلا شك، ووجب الجهاد عليه... يبحث كل منا عن كيس بلاستيكي، نجربه، ننفخه ونطمئن أنه ليس مثقوبًا، وكل واحد يطلع بتاعه ثم نتبول داخل الأكياس، نربطها جيدًا وننطلق للجهاد. نرمي بالأكياس داخل المحل، ويحقق ناجي هدفه في إصابة الكيس بوجه الفتاة التي تعمل في السوبر ماركت، ونضحك ونسعد بانتصارنا الأول، وأقول لهم:

- يجب أن نجدد النية بأن ما نفعله في سبيل اللـه..

وبالليل ندهن باب المحل بالبويه ونكتب عليه: اخرجوا من بلادنا أو اتبعوا ديننا! ونحشـــو الأقفال الضخمة بالغـــراء، وفي الصباح نتلصص من بعيد على صاحب المحل وهو غارق في الحيرة والهمّ. ويسألني ناجي:

- وبعدين يا سمو الأمير.

وسمو الأمير لم يخطط لأبعد من ذلك.

- إحنا عاوزين نعمل عملية تدخلنا الجنة حدف.

وبجراة مدهشـــة يســـرق الجاز من أمي، ويصبـــه في زجاجة كوكا كولا، ويحشر في عنقها قماشة، يقول.

- دي قنبلة.

التقط ما يعزم عليه.

- انت عاوز تفجر السوبر ماركت؟

يرفع سلاحه.

- وأطربقه على دماغ أمه... المهم أدخل الجنة .

- بس أنت كدا هتدخل السجن.

يداري سلاحه. ويسحب شخرة متوترة.

- طب بص، أنا عارف بيت قسيس، هو بيركن عربيته تحت البيت إيه رأيك نولعها؟

ناجي لا يرضى سوى بالقمة، وأنا مثله.

- توكلنا على اللـه.

أقـف على ناصية الشـــارع، المفروض أننـــي أراقب الحركة لـ ناجي، بدلًا من ذلك أراقبه هو، أراه وهو يفتح سوستة البنطلون، ويخرج بوز الزجاجة، ويفرغها على إطار السيارة الخلفي، الاحظ أن الســيارة فيات خضراء. يشـــعل عود ثقـــاب، يتوهج للحظة ثم

ينطفئ، فيشـــعل آخر ويلقي به على الإطـــار فينطفئ أيضًا. يبحث عن شـــئ ما في الأرض، يلتقط صحيفة ويشعلها، يقربها من الجاز فلا تتفاعل معه. ألمح شخصين قادمين من بعيد، أشير له أن يخلع، وأخلع أنا أيضًا.

يعلق بحيرة:

- العربية مش عاوزه تولع؟ تقولش قاري عليها قرآن!

***

من سيد الأعرج أشتري نبلة خرطوم، وأنتقي من الأرض زلطة صغيرة ومدببة. أقف على بُعد عدة أمتار من محل السوبر ماركت متخذًا من سيارة مركونة ساترًا، وأصوّب، أهمس بخشوع:

- ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وأسحب الخرطوم بكل قوتي ثم أفلته، تنطلق الزلطة كرصاصة تعرف طريقها جيدًا... يخيل لي أن السوبر ماركت والعمارة نفسها انهارا من قذيفتي المباركة.

أفر على بيت جدتي، وأقول لنفسي: أستخبى عندها مدة أسبوع.

حين أصل تحت بيتها، أحس بأنني ابتعدت عن الخطر بشـــكل كاف، أتنفس بعمق، أنهج وأبتسم، أقول: هبقى أروح بكره.

ولكني لا أستطيع أن أنتظر لـ بكره. أعود إلى موقع الحدث، وأتابع من بعيد ما يدور. أمام المحل ناس محتشدة يحجبون عني الرؤية.

أذهب إلى البيت. الراوي منشـــغل بلوحة جديدة: مخلوق هلامي بقرنيـــن وذيل مدبب. حين يكـــون راضٍ عن إبداعه يصبح مزاجه عال العال. يشير ناحية اللوحة ويسألني:

- إيه رأيك؟

فلا أقول له إن الرسم حرام، وأنه سوف يتعذب بسبب فعلته تلك، وأن الملائكة لن تدخل بيتا به صورة، فما بالك بلوحة لإبليس. غير أنني لا أملك الجرأة الكافية لمواجهته.

- حلوة.

أكتفـــي بهذا التعليق، وأدخل الغرفة. ناجي نائم على الســـرير، أهزه.

- ناجي.. ناجي.. أنا كسرت محل الراجل المسيحي.

ينتبه من نومه مذهولًا.

- يا راجل!

- آه واللـهِ العظيم.

يقوم، ويدعك عينيه.

- طب تعالى نشوف.

أتخلى عن حرصي وأمشـــي معه. نمر بمحـــاذاة المحل فالمح صاحبه بطرف عيني وهو يلم الزجاج المهشم من على الأرض وقد استبدله بلوح زجاجي جديد. أغمز لـناجي فيبتسم. يعلق.

- أعتقد إننا كدا ضمنا الجنة...

قبل أن أجيبه ينزل كفه على قفايا يدفعني إلى الأمام. يجري ناجي، وأسقط أنا في يد صاحب المحل الغاضب، يقبض على عنقي ويجرني إلى داخل المحل. في المحل ينتظرنا آخر، غاضبا مثله، وربما أكثر... يهتف.

- قفشته؟

يلوي ذراعي، فأتوجع.

- اسمك إيه؟

- عبد اللـه.

يسأل الآخر.

- ساكن فين يا عبد اللـه؟

- في أرض اللـه.

تستفز هما الإجابة، يلكمني صاحب المحل في راسي لكمة قوية...

اتذكر ما كان يحكيه الإخوة عن التعذيب في المعتقلات، وكيف كانوا يتحملون الأذى بقوة.

- مين اللي مسلطك عليّ؟

لا أرد. يتدخل الآخر.

- إحنا نسلمه للنقطة و هناك يتصرفوا معاه.

ويلح صاحب المحل.

- مش قبل ما أعرف... مين مسلطه على أمي؟

وقبل أن يعرف مَن الذي سـلطني على أمـه تكون أمي أنا قد دخلت المحل.

- فيه إيه؟

يسألها صاحب المحل.

- انتي أمه؟

- أيوه.. ماله؟

- ابنك متسلط عليا... مرة الأقفال ومرة يرمي علينا شخاخ، والنهارده دا كسر لوح أزاز بـ 180 جنيها.

تستغرب، تسألني.

- ليه كدا؟

أود أن أقول لها: هذا واجب على كل مسـلم. غير أنني أسكت. تتوسل له.

- ماعلهش.. عقل عيال.. زي ابنك برضه.

ويقول الآخر:

- يعني يرضيكي كدا يا أم عبد اللـه.

تتعجب، تستفهم.

- عبد اللـه مين يا أخويا؟

يشير صاحب المحل نحوي.

- هو مش اسمه عبد اللـه؟

توضح.

- لأه.. دا عادل... عادل الراوي.

ينظر في عيني بغيظ.

- أومال بتقولنا اسمك عبد اللـه ليه؟

أرد بيقين وتحدٍ:

- كلنا عباد اللـه.

(5)

بعد صلاة العصر يأتي مرسال إلى الشيخ خالد فيأمر جميع الإخوة بإحضار السلاح اللازم والتوجه فورًا لمسجد الرحمة بالبصرواي، وأجري أنا على البيت، أحضر النبلة وألم الزلط وأبحث عن أتباعي فلا أجد منهم أحدا، أنطلق على البصراوي وأجدد النية، وأتمنى على اللـه أن أكون من الشهداء. هناك أجد عددا كبيرا من الإخوة في الحارة الضيقة، أشق الزحام وأدخل إلى المسجد المكتظ بالإخوة. يتوافد إخوة جدد فلا أجد لي موضع قدم. ويدخل علينا الأمير جابر شاهرًا سيفه، يصعد المنبر ويلوح بسيفه، يصرخ في الميكرفون.

- من اليوم لا وجود لمشرك بيننا.. من اليوم ستكون إمبابة إمارة إسلامية تقام فيها حدود اللـه وشرعه...

يهتف الجميع، بالداخل والخارج.

- إسلامية.. إسلامية..

يهزني الهتاف ويثير حماستي فأهتف معهم، أرى بوضوح ما نُقش على سيف الأمير ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾(*)، أحلم بالسيف وأتمناه. يشير لهم أن يهدأوا فيلبوا أمره، يستعيد نبرته الهادئة.

- لا إله إلا الله.

- الله أكبر.. الله أكبر.

نخرج من المسجد، نقف أمام دكاكين النصارى، نكسر الأقفال. ترتجف الطيور في أقفاصها وتستغيث، يحرقونها، ويقاطعهم الشيخ.

- البيت دا كله نصارى.

يجتاحهم هياج شديد، يتكدسون عند مدخل البيت، يقتحمون المكان وسط صراخ النساء وبكاء الأطفال، يلقون بالأثاث من البلكونات كلما تهشمت قطعة أثاث صاحوا:

- الله أكبر.. الله أكبر..

يقودهم الأمير جابر، يستعرض قوة جيشه، تطل الرؤوس من النوافذ تستطلع الحدث الرهيب، يسير في المقدمة وخلفه جيش من

(*) سورة البقرة، الآية: 193.

الجماعة، يدخل بهم من شارع، ويخرج من آخر، يسود الرعب والفزع في قلوب العامة، يصل بجيشه إلى شارع الوحدة، يدخل به شارع الجهاد، في نهاية الشارع كنيسة عملاقة، يداهمونها ويحرقونها، ويتسلق الأمير جابر سطح الكنيسة ويحطم الصليب العملاق بسيفه ثم يخلع جلبابه فيبان لنا عاري الصدر. يصرخ:

- إسلامية.. إسلامية..

رؤوسنا لأعلى وعيوننا على القائد المهيب.

في البيت أحكي لناجي ما جري فيتحسر لأنه لم يشارك، أواسيه:

- الجايات أكتر من الرايحات.

في ظهيرة اليوم التالي أجد المسجد مغلقًا بالشمع الأحمر. استفسر من الميكانيكي المجاور للجامع فيخبرني أن قوات أمن الدولة داهمت المكان ليلًا وأغلقته بالشمع كما أرى. وتتناقل الأخبار في المنطقة بالتواتر. ويقول أحدهم:

- قبضوا عليهم كلهم.

ويقول آخر:

- مافيش حد يقدر يتحدى الحكومة ويسلم.

وأفكر أنا في قائدنا: بالتأكيد هو يخطط الآن لمعركة جديدة يسترد بها عرشه.

بالليل، يطل علينا القائد منهزمًا ومضروبًا ومنكسرًا عبر شاشة التليفزيون، يبكي أمام المذيعة ويخفي وجهه كأي مجرم تافه، ويعلن توبته أمام الجماهير.

ويخرج الإخوة من المعتقـــلات واحدًا تلو الآخر، يتجه البعض لمســـاجد أنصار السُنة المحمدية، ويعود البعض إلى عهده السابق. وأســـأل أنا عن الشـــيخ خالد وعن مصيره، وتمر الأيام والليالي، ويصادفني مرة ليلًا عند الســـكة الحديد وقد حلق لحيته وتخلى عن جلبابه، حين يراني مُقدمًا عليه، يدارى ســـيجارة البانجو ويشـــيح بوجهه بعيدًا، بعيدًا جدًا.

العشيرة

(1)

لكل واحد منا أميرة، وشيماء أميرتي... شغوف بها طوال اليوم الدراسي، ليست الأجمل ولكن شعورا مبهما خطفني تجاهها. ولا أعرف كيف ألفت نظرها؟ فالأميرات ينجذبن إلى الأوسم، الأطول، الأشطر. وأنا نقيض كل ما فات.

ويطلب منا الأستاذ حمدي أن نحفظ مقطعا من كتاب القراءة، فغدًا الإملاء. في البيت، بدلًا من أن أنشغل بالحفظ أفكر في طريقة تضمن لي التفوق الأكيد. أفتح الكشكول وأكتب المقطع المطلوب حفظه على جلدة الكشكول من الداخل بقلم رصاص خفيف.. وفي الحصة، أدعي أنني أداري ما أكتبه بجلدة الكشكول عن زميلي، غير أنني في الحقيقة أنقل المقطع قبل حتى أن ينتهي منه الأستاذ حمدي، ولمزيد من الحرص، ولمزيد من الدهاء، أتعمد أن أخطئ في ثلاث

كلمات، ينشغل الأســتاذ بتجميع الكراريس فأمسح المكتوب بالقلم الرصاص وأنا موقن من النتيجة مُســبقًا، وتأتي النتيجة 10/7.. في المرة الثانية أخطئ في كلمتين، في الثالثة أخطئ في كلمة، في الرابعة أحصل على عشرة من عشرة، وأتحول بقدرة قادر من تلميذ خائب إلى طالب مجتهد، وينسب الأستاذ حمدي لنفسه فضلًا كبيرًا ويتباهى بي أمام العيال والمدرسين أيضًا، وأفرح أنا بنجاحي الزائف وأعتز به، وأرى الإعجاب في عين أميرتي فأتجرأ في الفســحة وأتحدث معها، فأفوز بالأميرة بغير عناء. وتمر الأيام وتهترئ جلدة الكشكول من أثر الكتابة والمسح، وأبحث عن طريقة بديلة فغدًا حصة إملاء جديدة ووسام آخر على صدري، أكتب المقطع المطلوب حفظه في ورقة وأطويها بعناية وأضعها في جيبي. لم تكن هناك خطة محددة. ويطلب الأســتاذ حمدي من الطلبة المتفوقين -وأنا واحد منهم- أن ينتقلوا إلى الدكك الأخيرة، ويســحب كرســيه ويجلس في المقدمة لمراقبة التلاميذ الخائبين الذين لابد أن يكونوا غشاشين، ويترك لي مساحة من الحرية. أفتح الورقة وأرمي بها بين قدميَّ تحت الدكة، أدقق النظر في الحــروف والكلمات فلا أميزها. أعاني من نظري الضعيف، ومن اضطرابــي المخيف، أحاول أن ألتقط كلمة واحدة فأعجز. وإذ بيد قوية تنزل على قفايا، تصطدم رأسي بحافة الدكة، قبل أن أســتوعب ما يدور يلتقطني هو كفأر مقزز ويركلني، ركلة كفيلــة بأن تطيح بي. الجميع عيونهــم معلقة عليّ وأنا عيني معلقة

عليها وأميرتي مذعورة. يلتقـط الورقة من على الأرض، ويرفع بدليل إدانتي.. يصرخ.

- ليه؟

مصدوم هو بلا شك. لا أرد. الذهول أقوى من الجميع.

- اقلع الجزمة.

مازق آخر... الشراب مقطوع وبانس مثلي. أتسمر. ينهال عليّ بالعصا كمجنون.

- اقلع الجزمة.

أتلكع في خلعها، يزداد غضبه، يحملني، ويحطني على الدكة الأمامية ويخلعها هو، ويأمر العيال بأن يكبلوني، يختار منهم الأشرار والعملاقة، ثم يضربني على قدمي 10 ضربات موجعة، لا أتمالك نفسي فأبكي، وأتحاشى النظر إلى أميرتي. حين ينتهي يأمرني بأن ألف الفصل كله فأفعل، ثم يعود ليضربني عشر ضربات أخرى، نار تحرق قدمي، أتقافز ككتكوت على صفيح ساخن، يعاود ضربي مجددًا، أعتقد أن عقابه سيكون أبديًا غير أنه يمزق كراستي ويلقي بها في سلة المهملات ويخرج.

البعض ينظر لي بشفقة، والبعض ينظر لي بشماتة، وأنا منكس الرأس ومهزوم، وعارٍ، ولا أملك غير أمنية واحدة: أن تنشق الأرض وتبتلعني.

وقت المرواح لا أذهب إلى شقتنا، أخرج من المدرسة واجري على بيت ستي. حين تفتح خالتي الباب تُصعق وتخبط صدرها.

- مالك؟

أرد بصوت ذليل.

- مافيش.

تتأمل وجهي، وتتفحصه.

- إزاي مافيش؟ انت شكلك مضروب.

انهار واصرخ واقول لها:

- أنا عاوز أبقى شاطر.

تحاول أن تجبرني على الهدوء فلا أهدأ. أردد بإصرار.

- أنا عاوز أبقى شاطر.

بعد الغداء، تفرش الكتب المدرسية على الأرض وتراجع معي الدروس، أنتبه لها تمامًا.

في حصة الإملاء يُجلسني أستاذ حمدي جواره، يترك الفصل كله ويركز معي، أسلمه الكراسة بلا خطأ واحد، يراجعها أكثر من مرة، ويقلب فيها ثم يعطيني الدرجة النهائية دون أي مدح.

يتجنبني العيال، وأتحاشاهم أيضًا، وأنظر إلى أميرتي فتبدو كذكرى بعيدة وموجعة.

(2)

من تحت السرير أسحب قفص العيش، وآخذ من أمي جنيها لأشتري الخبز، وحين أخرج من الشارع ألمح بلية تلمع على الأرض، أنحني والتقطها، أتأملها بإعجاب مؤمنًا أنه يوم حظي.

عند الفرن ينتظرني طابور طويل من البشر، أسأل عن آخر واحد في الصف ثم أخبره أنني خلفه، وأطلب منه أن يحجز لي مكانًا فيوافق. أبحث بالقرب من الفـرن عن طريقة لتزجية الوقت. هناك، وعلى بُعد عدة خطوات يتجمع العيال على الأرض حول أشرف المجنون. أشرف المجنون وهب نفســه للألعاب، مرت به الأيام والسنوات، الطفولة والمراهقة والشباب، وهو طفلًا لا يزال، يكبرني بعدة أعوام غير أن عقله أصغر من سنه بكثير، يكرس حياته للعب، في مواسم الطائرات الورقية تكون طائرته هي الأكبر والأبعد، تتوسط السماء

بألوانها المميزة الخلابة، وفي مواسم النحل، تكون نحلته مزينة وبسن قوي حاد بإمكانه أن يفلق أي نحلة إلى نصفين.

نحن الآن في موسم البلي، وهو يملك منه الكثير، الكثير جدًا، يجلس مقرفصًا ويلعب الرفة، والعيال من حوله بلا حول ولا قوة، يفوز عليهم جميعًا.

انضم لهم وأشاركهم اللعب، أستخرج بليتي من جيبي وأضعها على كفه، أخمن.

- كتابة.

يكشف عن العملة فإذ بها كتابة. الآن حان دوري، آخذ العملة وأطوح بها في الهواء كما يفعل الحكم في بداية مباراة الكرة، التقطها من الهواء وأدب بها على الأرض، يضع بلية وأخرى، يقول:

- ملك.

فإذ بها كتابة. يسألني بضيق:

- معاك كام بلية؟

أعدهم.

- أربعة.

يعد بـــدوره أربع بليـــات وطالبني بأن ألعـــب، وألعب. وأفوز فيغتاظ.

يضاعف العدد.

- ملك.

فتظهر العملة كتابة. يضاعف العدد.

- كتابة.

فإذ بها ملك. الحظ يحالفني. يتوتر، وأسعد أنا بمكسبي. ونستمر في اللعب، وأستمر في المكسب، يزداد غضبه، ويتابع العيال باهتمام وتشجيع، فيداعب ذلك جنونه.

يظهر ناجي فجأة، ما إن يراني حتى يجري نحوي.

- انـــت قاعد بتلعب هنـــا واحنا قالبين عليـــك الدنيا.. موتنا من الجوع.

ويلاحظ أن عبي قد امتلأ بالبلي. أقول لـ أشرف.

- كفاية كدا.

فيقبض على حجر ضخم ويزبد ويطق شررًا، يخبط بالحجر على الأرض، ويتوعد:

- كفيني.

ويتوجس ناجي، ويهمس لي بأن أخسر، وأحاول صادقًا أن أخسر غير انني أفوز في كل مرة.

يتشـــنج أشـــرف، ينتفض، أذعر وأقوم، فيزداد هياجه، رغوة تخرج من فمه، يتحشرج، يقول ناجي:

- إديهم له.

قبـــل أن أعطيه ما يريد يكون الجنون قد اجتاحه، يفتك بكل من يقتـــرب منه، نفر مـــن حوله مذعورين، يتحـــول إلى وحش ثائر، يقبض على طفل صغير ويخبطه بالحجر على رأسه.

يموت الطفل، ويُقبض على أشـــرف ليقضي ما تبقي من عمره في المصحة النفسية حيث يجب أن يكون.

(3)

عند السكك الحديدية نلعب ونضحك، ولكن صرخة تصدر من بيت أم طلعت تقتل ضحكاتنا، نترك الكرة ونجري على مدخل البيت، بالحوش تداهمنا الدهشة؛ كلبة الصعايدة التصقت بحزن ابن الغجر، يبدو أنه استدرجها -أو استدرجته هي- إلى هنا، وحاول أن يعمل معها "واحد" غير أن ظهور طلعت المفاجئ أفسد كل شئ، الكلبة المرعوبة ضاق فرجها من الخضة وتشبث بعضو حزن، وحزن يصرخ والكلبة تصرخ، وطلعت يزعق:

- يا ابن الكلب يا وسخ هتنجسوا البيت.

ويسحب خشبة وينزل بها على ظهر الكلبة، والكلبة تعوي، ونحن نتربص لها بالطوب والعصا. تسحب حزن وتحاول الفرار به، ملتصق هو ولا يملك من أمره شيئا. نعترض طريقهما، تزمجر وتكشر عن

انياب مخيفة، نبتعد عن باب البيت وننهال عليها بالطوب.. تخرج إلى الحارة ولا يزال حزن عالقًا في مؤخرتها، ينتبه لهما الجميع، يخرج الناس من الدكاكين وتطل النساء من الشرفات. والكلبة حائرة لا تعرف كيف تتخلص من جرمها ولا لأي الطرق تسير؟ عند منتصف الحارة تصبح محاصرة تمامًا... حسن الحلاق وحمادة السمكري ورضا شيخ الجامع أمامها، والصعايدة وطلعت ونحن خلفها. وكل واحد منا يبحث عن حجر، يلتقطه ويحدفها به، والكلبة تئن والولد يئن، وتقول امرأة من جهة ما:

- عيال وسخة. مالقوش غير الكلاب؟

وترد أخرى:

- من قلة النسوان يا ختي.

ويهتف الشيخ:

- أعوذه بالله، دا فعل قوم لوط.

ويقترح الحلاق:

- مش هيفكوا من بعض غير بالمية السخنة.

يتطوع ناجي ويحضر مياها مغلية في غمضة عين، وينظر له حزن متوسلًا، وقبل أن ينطق بكلمة يلقي عليهما ناجي المياه وهو يقول:

- بس يا عرص يا نياك الكلبة.

وتنبح الكلبة بصوت متحشرج ثم تفكه وتجري، ويبقي حزن خلفها بعضو متسلخ. يداري سوءته، ويبكي. ويقتحم الغجر المكان كما اقتحمه الصعايدة، وتهب فيهم أم حزن وتحتضن ابنها، ويقول حسين ابن الصعايدة:

- ابنك الوسخ مالاقش غير الكلبة بتاعتنا.

ويرد نور:

- فضحنا في المنطقة.

ويعلق أبو حزن:

- خلاص يا إخوانا إن كان الواد غلط يصلح غلطته.

ويتدخل الشيخ رضا:

- يصلحها إزاي بس؟

ويشد الأب من كيس الكولة ويوضح:

- يتجوزها.

وتروق لي الفكرة، وأتخيل حزن في الكوشة وإلى جواره العروس الحسناء في فستان الفرح وقد تزينت ووضعت على رأسها باروكة صفراء. وأتخيل حياتهما الزوجية وما يعقب عليها من أبناء، وأتساءل: ماذا سيأخذون من الأم وماذا سيأخذون من حزن؟

(4)

يُطرد ناجي من كل شغل يلتحق به. لا يستقر في عمل لأكثر من يومين.

وتقول له أمي:

- يا بني ربنا يهديك ركز في شغلانة.

فيعترف لها أنه لم يجد العمل الذي يستوعب إمكانياته.

ويغيب عن البيت بالأيام ويعود محملًا بالمال والهدايا. وتظن أمي أن ربنا فتح عليه من وسع فيقبل يدها ويطلب منها أن تدعو له بالستر، وتكشف رأسها وتدعو له وهي مبسوطة بما جلبه. ويبقي الراوي منزويًا يتطلع إلى لوحة جديدة، يحصل على نصيبه فلا يرد بشكر أو بكلمة طيبة.

وتأتي الإجازة فابحث عن عمل، وألجأ إلى نعناعة القهوجي، فيعلن أن الحال واقف ويتمنى من الله أن يفكها على الجميع.

ألح على ناجي أن يشاركني في عمله، يقول:

- اللـــي انـــت عاوزه هيوصلـــك.. كتـــب، دروس، المهم تنتبه لمستقبلك.

أتمادى في إلحاحي فيصر بدوره على الرفض. لا أيأس، وتحت ضغطي وزني يرضخ ذات مرة ويخبرني أن عمله يتطلب السرية التامة والكتمان، أقســم له بأن لا أفشي ســره، وأنني سأكون عند حسن ظنه. ونخرج بعد منتصف الليل، في طريقنا أسأل عن ماهية العمل، فيطالبني بالصبر. وأصبر في جو مقلق ومريب.

عند شارع منعزل يستخرج من حقيبته الصغيرة كوفية، يلفها حول عنقه ويداري بها وجهه ويناولني واحدة، ويطلب مني أن أفعل مثله فأتأكد أنني مقدم على جريمة. ويمر رجل مترنح في الظلام كأنه شبح، يعترض ناجي طريقه شاهرًا مطواته فإذ بالرجل يرتجف ويتوسل طالبًا الرحمة، يأمره ناجي بأن يخرج ما في جيوبه، فيفعل الرجل بلا تردد وهو ميت في جلده، ينغزه ناجي بظهر المطواة ويطلب منه الرحيل، فيبتعد غير مصدق أنه قد نجا.

في شـــارع جانبي يعد ناجي الفلوس، أستبشر وأنتظر نصيبي. بدلًا من ذلك يدس الفلوس في جيبه.

اسأله:

- فين نصيبي يا برنس؟

- مش قبل ما أمك وأبوك ياخدوا حقهم.

في البيت يمد للراوي علبة السجائر السوبر وقرش حشيش، يشكره الراوي بطريقته المعتادة، يبصق في وجهه ويتمني من الله أن يولع فيه بجاز وسخ، ويمسح ناجي البصاق ويبتسم برضا. وترقص أمي من السعادة. وأعد أنا نصيبي وأحزن على ما ضاع منه. وأندم على مجهودي الذي راح. وأتساءل: طالما أن نصيبي سيأتي في كل الأحوال... لمَ المخاطرة والتعب؟

(5)

يشمشم وحشى عن لقمة، لا طعام في البيت... أمي خرجت من صباحية ربنا تسعي وراء رزقها/رزقنا ولم تعد، وناجي مختفٍ من يومين، ربما يكون قد قبض عليه. أما الراوي فقد توحد مع لوحته، وسؤاله جريمة. وأنا جائع. ألبس الشبشب، وأفتح الباب، على عتبة الباب يداهمني شوال غلة، أسأل الراوي مندهشًا:

- إيه دا؟

يترك عالمه ويقوم ليستطلع الأمر:

- دا رزق.

ويشير لي.

- دخله.

أحتضن شوال الغلة وأحاول أن أرفعه عن الأرض فلا أقدر، غذاء كثير لا أستطيع حمله وحدي. والراوي لا يساعد أحدا. ازحزح

الشوال، وأجره، أسحبه بصعوبة وأركنه في الصالة، يعود الراوي إلى جلسته ويضيف.

- لو حد سألك إحنا ما نعرفش حاجة.. واقفل الباب.

أغلق الباب وينهمك في لوحته، ولا يتكلم، وأنظر أنا إلى الكنز ولا أتكلم.

أخمن أن الغلة مسروقة من قطار الصوامع، العرب مشهورون بسرقة الغلة، ربما يكون أحدهم سرق الشوال ولم يتمكن بالهرب به فتركه هنا وسيعود لاسترداده في الوقت المناسب. وتمر ساعة وتمر أخرى وأنا ممزق بين الحيرة والجوع، الطعام أمامي يكفي حمارين، الحمير بإمكانها أن تأتي على الشوال بسهولة ويسر. أما نحن فعلينا أن نطبخ. ولكن كيف نطبخ القمح؟ يحمل الراوي إجابة لسؤالي.

- عارف عمك عياط بتاع الفول؟

بالتأكيد أعرفه.

- روح قول له أبويا عاوزك وهات معاك العربية.

ألتقط ما يعزم عليه، أقول:

- يمكن حد يجيبي يسأل عليه.

يرد بتلقائية:

- يبقى حرامي ونضربه ونسلمه للنقطة.

وجهة نظر معقولة.

- قدر الحكومة هي اللي جت؟

يرد بنفس التلقائية:

- ما إحنا كنا جايبين الكارو عشان نسلمه للنقطة.

وجهة نظر مذهلة.

وأروح وأعود بعم عياط شخصيًا، ويشتري عياط الغلة، ويعد له 50 جنيها عدًا ونقدًا، ويحمل الشوال، ويرحل في سلام، وأنا سعيد ومستبشر وجائع.

والراوي أيضًا جائع، ويجلس ويتمجلس، ويسألني:

- تاكل إيه؟

وأفكـــر في الملذات كلها. وأســـتعجب أن هذا العرض يأتي من الراوي، وأتذكر ناجي وعروضه المدهشة.

- اخلص قبل ما أمك ترجع ولا الخرا أخوك.

ماذا آكل؟ وقبل أن أفكر في إجابة، يصيح هو.

- أقول لك.. جري على سيد كفتة هات لنا فرختين.

وقبل أن أجري يضيف:

- وعلبة سوبر.

هـــذا أكثر مما تمنيت. يحولني الجـــوع إلى عداء. وحش يلهث على وجبة شهية.

أقف أمام الشواية وأستنشق الدخان الشهي فيثير حماسة وحشي.

في البيت، يرفع الراوي اللوحة ويضعها على الأرض.

- أفرش الأكل عليها.

افرش الطعام على اللوحة، في اللوحة قرد ضخم نائم على شجرة موز عملاقة، يأكل الموزة بيد وبالأخرى يداعب بتّاعه، أضع علبة الطحينة على بتّاعه. تثيرني الرائحة الطيبة، وقود الحياة أكثر. أجلس على الأرض وآكل، أمزق لحم صيدي الثمين وأنهال عليه، وينظر لي الراوي ويقول وهو يلوك الطعام.

- مش عاوزين نسيب أثر لحاجة.. كُل اللي تقدر عليه وزيادة.. ما تخليش حاجة.

وأفترس الفرخة وأنعم.

ثم يسألني.

- انت معاك كام؟

أسحب الباقي من جيب القميص العلوي، أقول:

- 15 جنيها..

- طب خد خمسة وهات الباقي. وكُل.

أناولـــه الباقي، وأريت على وحشـــي النائم مـــن التخمة، ثم ألم ما تبقـــى والتقط اللوحـــة وأركنها كما كانت، وألـــف بقايا الطعام وأحتار: لو رميته في الزبالة أكيد هيعرفوا.

ويؤكد الراوي على ظني، ويقترح أن أرمي به على السكك الحديدية، وأن أرمي اللوحة أيضًا. يعلق:

- اتزفرت وأنا ربنا رزقني بكلبة بلدي.

حين أعود أجدها قد عادت، تستقبلني سائلة:

- أكيد فرفرتوا من الجوع.

لا بد أن أبدو لها مفرفرًا من الجوع.

أسألها.

- انتي كنتي فين كل دا يا أما؟

وأدخل. الراوي بدأ في لوحة جديدة. أجلس على الكنبة، تغلق الباب، وتقول وهي تخلع الطرحة.

- بشحت.

تجلس إلى جواري، وتخرج من عبها كيس قماش، تفتحه وتصبه على حجري.

- خد عد دول.

تقوم، وتخلع الجلباب، وتتشغل هي بالراوي الذي يبدو متضايقًا، وأنشغل أنا بالعملة، أصنفها، أصنع تلا من كل فئة، الشلن، البريزة، الربع جنيه، الخمسين قرشا.

تسأل مستغربة:

- انتوا إيه ما جوعتوش؟

تفتح لفة سندويتشات وتفردها على الترابيزة، تفوح رائحة الطعمية والفول.

تسألني:

- طلعوا كام؟

أكبش من تل الفئة الأعلى، وأصب في جيبي، أقول:

- لسه ما خلصتش عد.

فترد:

- طب انزل كُل الأول.

وتفتش في السندويتشات حتى تعثر عليه، تلتقطه وتقدمه للراوي.

- دا فول بالبيض.. اللي انت بتحبه.

ويرد بتأفف.

- مش عاوز.

تندهش.

- انت هتغضب على اللقمة؟

بحزم.

- حطي في بوء أمك خرا.

أنتهي من عد الفلوس، أعيدها إلى الكيس القماش، وأغلقه جيدًا، ثم أحدفه لأمي وأنا أقول:

- 12 جنيها.

تلتقطه بلهفة وتقبله.

- رضا.

ثم تسألني.

- سألت على أخوك؟

لا أرد، فانا لستُ في حاجة له. فقط أفتح الباب وأخرج.

على ناصية الشارع أعد عملات أمي، 7 جنيهات، أدسهم مع فلوس الراوي، وأملس على وحشي المطمئن، وأفكر في يومي الجديد: كيف أقضيه؟

المؤلف في سطور

عمرو عاشور

- روائي وصحفي مصري، من مواليد القاهرة، درس الفلسفة في جامعة القاهرة وتخرج منها 2003.
- له ثلاث روايات... دار الغواية، كيس أسود ثقيل، رب الحكايات. جميعها عن دار ميريت للنشر والتوزيع، ومسلسل إذاعي على f.m 95 بعنوان "أبو لبدة والشاويش".
- حصل على جائزة ساويرس للشباب 2013 عن رواية كيس أسود ثقيل.
- كما اختيرت روايته رب الحكايات كأفضل عمل روائي 2016 عن جريدة الأهرام إبدو.. واختير مخطوط مجموعته "آينشتاين" ضمن أفضل عشر مجموعات في مسابقة كتاب اليوم من مؤسسة الأخبار.
- حصل على منحة وزارة الثقافة لأربع دورات متتالية.

البريد الإلكتروني:

amrashour1000@gmail.com

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

قانون البقاء

"لم يكن في شقتنا مطبخ، وأمي فكرت ودبرت واستغلت بير السلم، وبير السلم كان وطنًا لمخلوقات عجيبة، شعبه من العفن والديدان والفئران والحشرات. ولكنها استطاعت في حملة تنظيف شرسة إبادة الشعب المسكين. واشترت "بوتاجاز" بأقساط -مات صاحبها من العِلة- وجعلت منه مطبخًا. أما الشقة فهي في الدور الأرضي من بيت جدتي، أوضة وصالة وحمام بلدي لا يتسع غير لقاعدة صغيرة وطشت مياه وحنفية منخفضة. تلك الشقة هي الحلم الوحيد الذي حققته أمي".

"قانون البقاء- حياة مدهشة لابن الراوي" هي الرواية الرابعة لـ"عمرو عاشور" وفيها يعيش ابن الراوي في صراع دائم بين الإنسان والآخر الذي يتمثل في تابوهات هي مكسورة من الأساس. ناجي وعادل وعالمهما الذي أجبرهما على التخلي عن كل ما هو إنساني رغم محاولتهما في أن يستمرا ويبقيا في حياتهما العبثية وغير الآدمية بالمرة. ربما تكون "قانون البقاء" امتدادًا لرواية "عمرو عاشور" السابقة "كيس أسود ثقيل" ولكن من منظور مختلف كليًا ليرسخ مشروعه الروائي المتميز بين أبناء جيله بتحطيم صورة البطل النموذجي.

تصميم الغلاف: عمرو عبد العزيز

9 789774 904868

دار العين للنشر
Elain Publishing House